المجاعة الكبرى

اسم الكتاب: المجاعة الكبرى
اسم المؤلف: محمد سعيد غازي
الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-7865-54-76
رقم الإيداع: 17769 / 2015
الناشر: دار العلوم العربية للنشر والتوزيع
إنتاج وتنفيذ: دار العلوم العربية للنشر والتوزيع
بلد المؤلف: مصر
بلد الناشر: جمهورية مصر العربية
رقم الطبعة: الطبعة الثانية

تحذير / /
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب إلا بموافقة خطية من الناشر والمؤلف.

الناشر / / دار العلوم العربية للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
هواتف: 988 3798 - 048 - 002
المبيعات: تحويل داخلي 13
الفاكس: تحويل داخلي 15
إدارة النشر: 00201027657471
الشراء عبر الإنترنت أو مناقشة المؤلف عبر فيس بوك.
WWW.FIRST -BOOK.NET

ناقشوا الكتاب على فيرست بوك للنشر والإعلام
أحد أنشطة مؤسسة دار العلوم ودار علوم الأمة للاستثمارات الثقافية.
WWW.FIRST -BOOK.NET
دار العلوم العربية للطباعة والنشر والتوزيع

سلسلة ساعات من التاريخ

(١) المجاعة الكبرى

الطبعة الثانية

كافة الحقوق محفوظة

المجاعة الكبرى

محمد سعيد غازي

الإهـداء:

إلى كل شهداء الحرية والفكر في العالم العربي
وإلى روح جدتي التي علَّمتني معنى الحياة

أهم المراجع للكتاب

إغاثة الأمة بكشــف الغمة ص ٩٩: ١٠٠ تقي الدين المقريزي البداية والنهاية- ابن كثير
العصر العباسي الأول- الدكتور عبد المنعم ماجد
بدائع الزهور في وقائع الدهور- محمد ابن إياس المصري
تاريخ البطاركة في الكنيســة القبطية- لساويريس بن المقفع أسقف الأشمونيين

هذا الكتاب الأول من سلسلة (ساعات من التاريخ)، التي تحكي عن دول وحروب وأشخاص واغتيالات وأوبئة وكوارث غيرت مجرى التاريخ، وقد جعلتها في أسلوب بسيط ومختصر، وكان الغرض هو أن تصل المعلومة والفكرة بسيطة وغير معقدة.

وهذا أول جزء في السلسلة (المجاعة الكبرى)، وهو عن المجاعات والأوبئة التي حدثت في العصور القديمة والوسطى والحديثة. بدايةً من لوحة المجاعة، والعصر الإخشيدي، ونهاية آخر خلفاء العصر العباسي، إلى الخليفة المستنصر والشدة المستنصرية، ونهاية العصر الفاطمي، وعن بعض الشخصيات التي لا تُمحَى أسماؤها من سجلات التاريخ.

لست أدري من أين أبدأ؟! وهل تطاوعني الكلمات؟

فإن الكلمات تتصاغر والعبارات تتضاءل، ولكني سأحاول قدر استطاعتي، وعسى أن أُوفَّق؛ فقد قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة، جزء من الآية ١٠٥).

مقدمة

يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ (الآيات: ١٥٥ - ١٥٧).

هنا يخبر الله تعالى عباده أن الابتلاء والمصائب تنزل عليهم لحكمة عند الله (سبحانه)، وليس صورة من العذاب من أجل العذاب فقط كما يدَّعي الملحدون، ولكن يقول الله لنا السبب في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾ (سورة محمد، الآية: ٣١)، وقال (عز وجل): ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ (سورة الملك، الآية: ٢)، ومن أجل هذا جعل الله (سبحانه وتعالى) المصائب والمحن في الأنفس والأموال والجوع، وجعلها في أقرب الناس إليك؛ أولادك وأهلك ومَن هو عزيز عليك، وجعل الموت والمرض لسبب، وهو معرفة أيكم أحسن عملًا، ولكي يعلم الصابرين منكم، وبشِّر الصابرين، ومن صبر تحولت المصيبة إلى نعمة وأجر من الله ومغفرة ورحمة، ونسأل الله من فضله أن يجعلنا وإياكم من الصابرين: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا

إِنَّــا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ (سورة البقرة، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧).

لكن حين يشــتد الكرب ويطول الهم وتغيب البسمة ويجتاح طيف الظلــم حياة الإنســان، فتختل الموازيــن وتُزيَّف الحقائــق، وتُغلَق كل الأبواب المفتوحة أمامه، ويطول التفكير، فيصبح الإنســان مثل الريشــة في الهواء وفريسة سهلة للشيطان، وتتعثر قدمه ويعجز عن الخروج من هــذه الظلمة، ويتغير الوجه ويعتصر القلب والفؤاد، وعند المحن يُعرَف أشــداء الرجال، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وهي سُــنة كونية، وليس على الأفراد فقط، بل على الدول نفســها، تجــد دولًا نجمها يُطفَأ، ودولًا أخرى نجمها يضيء، وأممًا تموت وأخرى تُولَد، وتظل العبرة في التاريخ.

في البدايــة كانت الكلمة، ولذلك قبــل أن أبدأ، يجب أن نعرف ماذا يحدث للإنسان عند الجوع، وما التغيرات التي تحدث للجسد والأعضاء..

عندما يجوع إنسان بشدة ولا يجد شيئًا يأكله تبدأ أعراض أولى، وهي ضعف وفقد الوزن وجفاف واضطراب وارتباك وهياج في التصرفات، مع إســهال مزمن يصاحبه نقص في المناعة. ثــم يتبعه اضطراب في الأعضاء الداخلية، ويبدأ عضو عضو في التوقف عن العمل؛ الكبد يتوقف، والكلية تتوقف، وعدم توازُن في الضغط، وإشارات المخ يصيبها الشلل والارتباك.

ثم تزداد الحالة ســوءًا، حتى تصل إلى المراحل الأخيرة، فهي تشــمل هلوســة وتشــنجات، مع اضطرابات في ضربات القلب، حتى يصل الأمر إلى النهاية، وهي الموت، ويكون الشــخص في هذه الحالات السابقة مثل

المجنون؛ لأن العقل يتوقف عن التفكير الصحيح، ويخرج الإنسان عن إنسانيته، ويأكل أي شيء أمامه، سواء جيفة لبشر أموات أو كلاب حية أو ميتة أو حتى أبنائه. فإنسان يصل إلى مراحل الهلوسة هو إنسان من السهل أن يرتكب جريمة قتل ابنه الصغير ليأكله.

فهذا أمر لا يُعقَل لِمَن ما زال عقله يعمل ويخبره عن الخطأ والصواب، ولكن لِمَن فقد عقله وجن جنونه من شدة الجوع يفعل ذلك، ومن الصور التي حدثت في المجاعة الكبرى أو الشدة المستنصرية، كان الأب يقتل ابنه والأم تقف لكي تطبخ ابنها، والزوجة تأكل زوجها الميت، والجار يأكل جاره، وتجد الناس تأكل جثث الموتى في الطرقات وعلى الأرصفة، والجثث تملأ الشوارع والحارات في طول البلاد وعرضها، وكنا نسمع عند الغلاء وارتفاع الأسعار كلمة: «الناس هتاكل بعضها خلاص». ولكن اكتشفت بعد ذلك أن هذا ما قد حدث، والتاريخ يشهد على ذلك.

لا تحاول أن تعيد حساب أمس وما خسرت فيه، فالعمر حين تسقط أوراقه لن يعود مرة أخرى.

◆ **الموت:**

أؤمن كثيراً بأن المسافة الفاصلة بين عالمي وعالم الموت مجرد حدث. حدث واحد أيًّا كان هو لحظة فاصلة بينك وبين عالم غريب لا تعرف عنه شيئًا.

لا أستطيع أن أفهم لماذا يموت كثير من الناس في عمر صغير ويعيش آخرون طويلًا، أريد أن أعرف، كيف يحاسب الله مَن مات مبكرًا؟

لأنه قد يتوب لو عُمِّر طويلًا، هل سوف يقول هذا عند لقاء الله: لماذا لم يمنحه الله عمرًا طويلًا كالآخرين؛ علَّه يتوب؟ علم الله بحالنا وعملنا، لكنه مع ذلك جعلنا في الأرض؛ حتى لا يكون لدينا حجة عند لقائه، ينبغي أن نعلم أن من أصول الإيمان التي لا يصح للعبد إيمانه إلا بها: أن يؤمن بكمال الله المطلق، فله الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، منزه عن كل عيب ونقصان (سبحانه).

◆ **الفقر:**

عندما يكون سبب الموت هو الفقر والجوع تجتمع مصيبة الموت والفقر. قال الحكماء: «الفقر رأس كل بلاء». وقال لقمان الحكيم لابنه: «يا بني، أكلت الحنظل وذقت الصبر، فلما أرى شيئًا أمرَّ من الفقر، فإذا افتقرت؛ فلا تُحدِّث بهي الناس؛ كي لا ينتقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمَن ذا الذي سأل الله ولم يعطه من فضله أو دعاه فلم يجِب؟!». فسبحان الله.

◆ **الابتلاء:**

هو اختبار من الله للعبد، إما يصبر على هذا الابتلاء ويكون من الشاكرين ويحمد الله في السراء والضراء، ويكون مصيره رضوان من الله (عز وجل) ومغفرة ورحمة، أو أن يكون من الناقمين وينال غضب الله ولعنته.

دعاء أيوب (عليه السلام) لربه: «ربِّ أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين». فإن كثيرًا من الناس عبد لهواه وليس عبدًا لله، إذا ابتُلِي

نكـص على عقبيه، خـسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخـسران المبين، قال تعـالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَـهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَـبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَـا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ (سورة الحج، الآية: ١١).

قيل للإمام الشـافعي رحمـه الله: أَيّهما أَفضل: الصَّـبر أو المِحنة أو التَّمكين؟ فقال: التَّمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التَّمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتُحِن، صبر وإذا صبر مُكِّن، الابتلاء فرصة للتفكير في العيوب، عيوب النفس وأخطاء الماضي، ودعوة لتغيير وتصحيح المسار.

◆ **إن مع العسر يسرًا**

فمن رحم المعاناة يُولَد الأمل، ومن قلب الظلام ينبثق النور.

أصعب الأشـياء على الإنسان الفقر والجوع، ولكن هل الجوع بمعنى جوع الطعـام والفقر أو جوع وميول النفـس البشرية إلى حب التملك التـي لا تشـبع منه أبدًا مهـما امتلكت؟ إنني أعتقـد أن جوع الطعام والفقـر يأتي على القمة؛ لأن في الجوع يتسـاوى الجميع؛ الغني والفقير، وعنـد حدوث المجاعات يصبـح كل شيء مباحًا، وتسـقط كل القوانين والأعراف، وتتغير المفاهيم الأساسـية التي تربت عليها الإنسانية، وبعد سـقوط القيم يسـقط الضمير الإنساني، ويتسـاوى الجميع، لا فرق بين ملـك وصعلوك، بين عالم أو جاهل، تتوقـف العقول، وتُرفَع راية واحدة فقـط: «البقاء للأقـوى، ولا مكان لضعيف». ويصبـح قانون الغابة هو

المسيطر، وقد شـهد العالم على مر التاريخ مجاعات يقشعر لها الأبدان، وشهد الإنسان على مدى قرون سابقة الكوارث والمحن، بعضها كان نتاج جشـعه وطمعه، وبعضهـا الآخر جاء تعبيراً عن غضـب الطبيعة عندما تدخَّل الإنسان مغرورًا بعلمه؛ فينهار كل شيء.

كثـيرة جدًّا هي الكوارث التي هزت العالم وأرقت الضمير الإنسـاني، وأكثرها كان بسـبب تدخُّل الإنسـان، إما عن جهل أو عن علم زاد عن الحـد؛ فأصبح غرورًا على العلم ومَن وهبه العلم؛ فتنكر لصاحب العلم (سـبحانه)، وقال إنه يعلم أن اللـه غير موجود؛ فكان لا بد من صاحب العلم (سبحانه) أن يتدخل؛ حتى يعلم أصحاب العلم أنه موجود، وهو (سـبحانه) مَن وهبهم العلم، فعندمـا يعجز أصحاب العلم أمام غضب الطبيعة أو عن علاج مرض مسـتعصٍ، ويقف علم الإنسان المحدود أمام علم الله اللامحدود؛ هنا تعجز الألسنة ويخرس الملحدون ويتمتم الملحد بكلام غـير مفهوم، ويصرخ ويخرج عليك بكتب ونظريات عن الانفجار العظيم ونشأة الكون من الانفجار الذي حدث وتكونت منه المادة، وأن العلم يكشـف كل يوم عن أن الكون هو تطـوُّر ذاتي من فِعل الطبيعة والمـادة ولا وجود لله، ويبتسـم في وجهك وفي عينه نظـرات الانتصار، وأنـه صاحب العقل الجبـار، وأنت تنظر إليه نظرة الشـفقة على هذا العقل المسكين، ثم تأتي الكوارث والأوبئة لتغير شكل الحياة، ويقول الله لعباده المؤمنين: إنكم أنتم الغالبون، وإنكم على الحق المبين.

ويشـــهد التاريـــخ على أمم كانت تتخيل أنهـــا لا تُقهَر وقد انتهت في لمـــح البصر، وأصبحت صفحة من صفحـــات التاريخ، وقد جمعت بعض هذه الصفحات من الكوارث التي كانت بسبب الطبيعة أو بسبب جشع الإنسان وطمعه وشره، صفحات من السجلات التي غيرت مجرى العالم.

عندمـــا يتحـــداك ابنك الصغير، فهـــو يتحداك عن جهـــل وعن براءة طفوليـــة، ولهذا لن تتحداه، ولكن عندما يتحدى الإنســـان البالغ العاقل اللـــه (عز وجل)؛ فهو تحدٍّ نابع عن غرور وطغيان وتكبُّر وتجبُّر وضعف إيمـــان، ومَـــن اجتمعت فيه هذه الصفات كان يحـــق عليه أن يلقى من الله ما يســـتحق من عقاب، والعقاب من جنس العمل نفسه، فما دافع هـــذا التحدي؟! فلو تحدى طفل اللـــه فلن يؤاخذه الله (عز وجل)؛ لأنه تحـــدٍّ من براءة وضعف إدراك، لكن عندمـــا يطغى ويتكبر العاقل، فهل هـــذا ضعـــف إدراك أو كارثة من نتاج غرور النفـــس وخبائثها؟ أنت إذا وقفت أمام رب عملك في موقف تحدٍّ ســـوف يوقـــع عليك الجزاء دون تردُّد، فما بالك أن تجد إنسانًا يتحدى مَن خلق السماوات والأرض، ومَن أوجـــدك أنت ووهبك عقلك من أجل هـــذا، جعل الله العقاب والثواب لصاحب العقل الســـليم، ورفع العقاب عن المجنـــون غير العاقل، وهذا هو العدل الإلهي، وإذا كان الله غير موجود؛ ســـوف تســـقط كل القيم والمبادئ الإنســـانية من تلقاء نفسها، أو بمعنى آخر، إذا كانت الوجودية الإلهية غير موجـــودة؛ لن يُوجَد الثواب والعقاب، كذلك لن يُوجَد حرام وحـــلال، وبالتالي لن تُوجَد قيم أخلاقية ولا مبادئ إنســـانية ولا عائلية،

ويمــوت الضمير، ولن تجــده يعذبك بعد ذلك عندما تخطئ، وتســقط الفضيلــة والحياء من العالم، وتصبح الرذيلة شرفًا والعفة تخلفًا ورجعية، ولن يصبح في القاموس اللغوي كلمة (أخلاق)، ولماذا تكون هناك أخلاق وكل شيء مبــاح؟! ولكن الله موجود بعدله ورحمته، وهو العدل الأزلي (سبحانه).

الباب الأول

- المجاعات والأوبئة
- المجاعة الكبرى
- مجاعة الصين
- مجاعة البطاطس
- مجاعة الثلاثين
- الموت الأسود
- الإنفلونزا الوبائية

◆ التاريخ

إن في صفحات التاريخ عبرة لمَن يعتبر، واليوم أفتح معكم صفحة من كتاب التاريخ، ونرجع بعقارب الساعة إلى الخلف ألف عام إلا قليلًا، وبالتحديد في عصر المستنصر، الخليفة الفاطمي. ثم نقوم بالرجوع في الزمن أكثر، وتحديدًا عند بداية نهاية العصر العباسي، ولكي نعيش هذا الزمن؛ قد حاولت أن أصف الشوارع والأسواق والأبواب التي كانت تُستخدَم في هذا العصر، ولم أحاول جعل الخليفة المستنصر محور الأحداث، وما سوف أقوم بسرده هنا هو جزء من هذه الصفحة في التاريخ المصري، وسوف أحاول أن نعبر الجسر إلى هذه الحقبة التاريخية، وأجد أنه لزامًا عليَّ أن أقول لكم قبل أن نصل إلى الجزء الصعب من هذه الصفحة، والذي أوجع نفسي وفؤادي، وجعلني أعيد كل حساباتي ونظرتي في الحياة، وهو وصف المجاعة أو الشدة المستنصرية، وما حدث فيها عندما تتخيل أن هذه الأحداث قد وقعت في بلد من أكبر البلاد في الوطن العربي، ويكون هذا البلد هو وطنك الذي تحمل له كل حب وتفتخر بتاريخه، وتأتي هذه الصفحة من التاريخ تقلب لك الموازين، وكان أول تفكيري هو كيف خرج هذا الوطن من هذه الشدة؟ وماذا لو كنت تعيش في هذا الزمن الذي أكل فيه الناس القطط والكلاب ونبشوا القبور، واشتد بهم الجوع، وخُطِف الخبز من على رءوس الخبازين وانتشر الوباء، ووقع في الناس المرض والموت؟!

وهاجرت النســاء للعراق والشــام، وكن يبعن أنفســهن لقاء وجبة طعام أو رغيف خبز، واضطر بعض أعيان الدولة أن يخدموا الناس لقاء كسرة خبز.

كما بيعت حارة بأكملهــا مكونة من عشرين دارًا بطبق من الطعام؛ حتى سميت بحارة الطبق.

وأكل الناس الجيف والميتة، ثم عمدوا إلى القطط والكلاب يذبحونها ثم يأكلونها؛ حتى أصبحت سلعة نادرة وارتفع ثمنها؛ فبيع الكلب بخمسة دنانير، والقطة بثلاثة دنانير، ثم أكلوا الروث والحيوانات النافقة؛ فانتشر فيهــم المرض، وأصبح الموت في كل مــكان، وكان يخرج من القاهرة كل يوم ما بين مئة إلى خمسمئة جنازة.

وأمــا البيوت والدكاكين فقد خــلا معظمها بعد أن مــات أصحابها، ومن كثرة الموتى عجز زويهم عن دفنهم؛ فكانوا يلقون بهم في الشــوارع والطرقــات، ثم أصابهم الموت هم أيضًا، ولم يجدوا مَن يدفنهم فبقوا في البيوت والدكاكين، وأما الضواحــي والقرى؛ فقد هلك أكثر أهلها إلا مَن شــاء الله.. والمســافر يمر بالقرية فلا يرى فيها إنسانًا، والبيوت مفتوحة وأهلهــا موتى فيها، ولم يبقَ في قرى وكفور ونجوع كاملة بيت مســكون، ويقول البغدادي المؤرخ:

«بعضهم مــروا ببلد ذكروا أن فيه ٤٠٠ ورشــة للخياطة، فوجدوها خرابًــا، وأن الخياط بجانــب حياكته ميت وأهله مــوتى حوله، والبؤس واليأس أصبح حال الجميع، والتغير لا يُطمَع فيه، والخارجون عن القانون

وقُطَّــاع الطريق أصبحوا في كل مكان، واشــتد بينهم القتال، ويحمل كلٌّ منهم الســلاح، وينوي كلٌّ منهم أن يتخلص من الآخر. ويئس الناس من زيادة النيل، وتصحرت الأراضي، وهلكت الماشية، وهلك الحرث والنسل، ونــزل أهل الريف إلى أمهات البلاد، وهجر الناس بيوتهم، ومعســكرات العساكر قد تبعثرت وتخربت، والفتن بينهم قد قامت، والوزراء لا ينفذوا أي أمر؛ حتى تغير اثنا عشر وزيرًا في بضع سنين، وأُغلِقت أبواب الرحمة وفُتِحت أبواب العذاب، وأكل الإنســان أخاه الإنسان، وباع الأب أبناءه، وأكلت الأم رضيعها، وشوارع ومدن تحولت إلى مقابر، ورائحة الموت في كل مكان، ولقد حاولت التخفيف من وطأة الأحداث قدر المحتمل، وكان الهدف الرئيس من اختيــار هذه الحقبة؛ التذكير بقوة هذه الوطن على الخروج من الكوارث والمحن، ورغم ما وجدت من اعتراض على اختياري الكتابــة في هذه الحقبة من كثير مــن الأصدقاء؛ فإنني عندما شرعت في الكتابــة وجمع المعلومــات عن هذه الحقبة التاريخيــة، والتي وجدت كثــيرًا مــن الناس لا يعرف عنها شــيئًا؛ قد صُدِمت مما قــال المؤرخون، مثل: البغدادي، وقد حضر الشدة، وشاهد ما حدث، وأيضًا المقريزي قد كتــب عن هذه المحنة، وبعيدًا عن اعــتراضي أو قبولي للدولة الفاطمية أو الخليفة المســتنصر وفترة حكمه وحكــم الفاطميين، فإنها صفحة من التاريــخ لا تُمحَى بقبــولي أو اعتراضي، ومن أجل ذلــك اخترتها كي تكون صفحة من هذا الكتاب، وأعطيتها أكبر مساحة من الكتابة، وجعلتها أول محطة في رحلة الســفر عبر الزمن الماضي. نعم، أعترف أنها صفحة مؤلمة

للنفــس وحزينة للفؤاد، ولكن هناك صفحات في التاريخ أشــد منها ألمًا وحزنًا، وأنا عن نفسي كانت أشد الصفحات ألمًا وأصعبها عليَّ صفحة يوم كربلاء، وفيها تجمعت الخيانة والغدر مقابل الشجاعة والإخلاص، وقبل أن نحمل حقائب الســفر إلى شــوارع المحروسة، أريد أن أقول إن هذه الأحداث جزء بسيط من الأحداث، وذلك لعظمة ما حدث. والآن نرجع بعقارب الساعة، ونسافر عبر الماضي، ونعيش في زمن وأشخاص وشوارع وبيوت وعصر وحكام لم نعرفهم إلا من سجلات التاريخ.

◆ لوحة المجاعة

هــي لوحة منحوتــة وُجِدت بالقرب من أســوان، وهي تتحدث عن ســبع ســنوات من الجفاف والمجاعة في عهد الملــك زوسر، وفيها يُقدِّم زوسر القرابين لثلاثة آلهة مصرية، وهي تتحدث عن المجاعة التي حدثت عندما توقف الفيضان لمدة سبع سنوات طوال في زمن الملك سنفرو، من عصر الأسرة الرابعة حوالي ٢٦٥٠ ق. م.

◆ مجاعة الجراد.. الدولة الإخشيدية:

في ســنة ٣٢٧ هـــ هجم على مصر جراد لا تُوصَــف كثرته، حتى منع شعاع الشمس من الوصول إلى الأرض، فأتى على العنب والفواكه والنخل، حتى خربت البساتين وحقول المحاصيل؛ فعمت المجاعة البلاد.

وفي سنة ٣٤٧ هـ شهدت مصر جرادًا أتى على جميع الغلات والأشجار،

ونفقت الماشـية، وعمت مجاعة أشد وطئًا من الأولى، وانتشر الموت في كل مكان؛ فأكل الناس حيوانات الشوارع، ثم أكلوا جيف الماشية.

ثم حدث اجتياح الفئران لمصر.. يقول المقريزي:

«وقع سـنة ٣٤١ هـ وباء الفـأر وأهلك الغـلات والكروم. وحدثت مجاعة شـديدة؛ فاضطر النـاس لأكل الكلاب والقطـط، ثم عمدوا إلى الفئران». ويقول: «إن اصطياد الفئران كان سـهلًا؛ لفرط ضخامتها، فكان الفأر يعادل في حجمه الأرنب».

في المحرم من سنة ٣٦٠ هـ اشتد الوباء والأمراض بالقاهرة. وبلغ مد الوبـاء درجة كبيرة من العنف؛ فكثر الموت، حتى عجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم؛ فكانوا يطرحون موتاهم في النيل، ولا شـك أن اقتراف النـاس لتلك الخطيئة في حق موتاهم كان يعود عليهم بمزيد من البلاء؛ فقد أدى ذلك إلى انتقال العدوى وتفشي الوباء.

أمـا الدولة الفاطمية، فقد كانـت في بدايتها بداية خير ورخاء لمصر؛ لحنكـة المعز لدين الله، ومن بعده ابنه العزيز بالله، في تصريف أحوال الرعيـة ووضع الإصلاحـات الاقتصادية، ومرت فـترة دون أزمات، وعم الرخاء البلاد، ولكن في عهد العزيز بالله حدث غلاء سنة ٣٧٢ هـ وأعقبه وباء شديد بمصر؛ أفنى خلقًا كثيرًا لا يُحصَى عددهم، واستمر هذا الوباء متفشيًا حتى العام التالي.

ثم تولى الحاكم بأمر الله الحكم وهو ابن ١١ سنة ونصف..

وحدث في عهده العجب، اسـتخف به الجنود ورجال الدولة؛ فحاول

إثبـات صرامته وقوتـه، وأخذ قرارات مجنونة وغـير منطقية من ناحية أخرى..

منع أكل الملوخية وبيع الترمس والسـمك الـذي لا قشر له، وضرب عنـق مَن فعـل ذلك، ونهى عن بيـع الزبيب، ومنع التجـار عن حمله إلى مصر، ثـم جمع كمية كبيرة وأحرقها على شـاطئ النيل، وأنفق على إحراقها فقط دون قيمتها خمسـمئة دينار، ومنع بيع العنب، وأحرق ما كان في المخازن من جِرار العسـل؛ فكُسِرت وقُلِبت في النيل، حتى امتلأ بها، وتلاعبت الحكومة بالناس، فسـكت دراهم ودنانير جديدة، وأمرت الناس باستبدالها بالقديمة؛ ما أدى لتربُّح الحكومة وخسارة الناس القيمة الفعلية لأموالهم، كما اشتغل الوزراء بتجارة الغلال، وتلاعبوا في الأسعار؛ لتحقيق أعلى ربح، وأعقب الغلاء وباء في سـنة ٣٩٨ هـ؛ فأفنى كثيرًا من أهل مصر، واسـتمر تفشيه حتى آخر سـنة ٣٩٩ هـ؛ فتزايدت الأمراض وعزت الأدوية؛ فعمت المجاعة، وكان الموت نتيجة سوء التغذية، وخرج الخليفة في موكبه، فتجمهر الناس عليه، وكادوا يفتكون به، لولا الحراسة الموجـودة معـه، والذين اسـتطاعوا تهريبـه إلى داخل القـصر والناس يهتفون: «الجوع.. الجوع.. ما هكذا فعل بنا أبوك ولا جدك».

فأمـر الخليفة بضرب عنق كل مَن يخـزن الغلال وحرق داره ونهب أمواله؛ فخاف الخزانون وأرشـدوا المحتسب إلى المخازن السرية لتخزين القمح، وأخرجـوا ما عندهم من الغلال، ثم أمـر بالخبازين والطحانين فجُمِعوا وضُرِبوا بالسياط في الميدان وشُهِّر بهم؛ فانحلت الأزمة قليلًا.

وفي خلافــة الظاهر لإعــزاز دين الله الفاطمي فشــت الأمراض وكثر الموت في الناس في ســنة ٤١٥ هـ، وكثر الوباء والموت، حتى لم يخلُ منزل واحد من الموت أو المرضى، وامتد الوباء إلى الواحات سنة ٤١٧ هـ؛ فحل بأهلهــا جدري عظيــم، ومات كثير من أهلها، ثم حــدث وباء عظيم في العام نفســه، وانتهت خلافة الظاهر بوباء آخر ســنة ٤٢٦ هـ، لم يعِش الظاهر بعده طويلًا؛ إذ تُوفِّي في نصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ.

ثم تولى المســتنصر بالله الحكم عام ٤٢٧ هـ بعد وفاة أبيه الظاهر، وهو ابن السابعة من عمره، وشهد عصره أكبر وأشد المجاعات التي مرت على مصر، وهي الشدة المستنصرية، أو المجاعة الكبرى.

◆ دخول الجحافل المغولية بغداد

اليــوم ١٤ الأربعــاء من صفر ســنة ٦٥٦ هجريًّا، نقــف أمام أبواب الخليفة العباسي المستعصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين، وأشاهد حجم الغضب على وجهه وهو يقرأ رسالة هولاكو الذي أرسلها إليه، وفيها:

«عندما أقود جيشي الغاضب إلى بغداد، سأقبض عليك سواء اختبأت في الجنــة أو في الأرض، وســأحرق مدينتك وأرضك وشــخصك. إذا كنت حقًّا تريد حماية نفسك وعائلتك؛ اسمع نصيحتي واهدم الأسوار والقلاع وتعالَ إليَّ بنفســك، وســلِّم المدينة واحفظ كرامتك ومــاء وجهك أمام جندك، وإن أبيت ذلك؛ فسترى».

تخيل معي إذا أرســل لك شــخص رســالة تهديد ووعيد مثل هذه

الرسالة وأنت شخص عادي ولست بحاكم، ماذا سوف يكون ردك؟ أو كيف يكون هو حالك لو كنت لا تستطيع الرد؟ وأترك لكم الإجابة، اما عن المستعصم فقد كان حليمًا متدينًا، ولم يكُن حازمًا، وكان ضعيف الهمة، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وكان يعتمد في كل قراراته على وزيره ابن العلقمي، وتلك كانت المصيبة والمأساة، وعندما علم الخليفة أن ليس في استطاعته صد عدوان المغول، ذهب إليه بنفسه؛ لكي يطلب منه الأمان لسكان المدينة عندما يتسلمها هولاكو، وبعض المصادر تقول إنه أرسل له ابنه، وعندما دخل هولاكو بغداد قتل الخليفة وأولاده، وقتل الجيش التتاري كل مَن يجدونه من السكان، لدرجة أن هولاكو نقل مكان خيمته بعد أيام من دخول المدينة؛ جرَّاء رائحة الجثث المتعفنة.

◆ **قتل الخليفة وإعلان سقوط الخلافة العباسية**

أشرس وأقوى الصدمات لا نتلقاها إلا من أعز الأصدقاء

◆ **الخيانة :**

الخيانة أو الغدر، هما وجهان لعملة واحدة، ونتيجة لا بديل لها، وهي الألم والمرارة، وحجم الألم يزيد أو ينقص حسب حجم الثقة والحب الذي وضعته فيمن قام بخيانتك، وحسب حجم الخسائر والأضرار الناتجة عن الخيانة، وعندما تكون النتيجة هي ضياع دولة وموت أكثر من مليون شخص من بينهم أطفال ونساء وشيوخ، تخيل ما حجم الخيانة، وهل

تُمحَــى هي أو صاحبها من صفحات التاريخ؟ الجواب طبعًا لا، لقد دخل صاحــب هذه الخيانة؛ كما يقول الناس من أوســع أبواب التاريخ، لكن صفحة من صفحات الغدر والخيانة.

◆ ابن العلقمي والخيانة الكبرى

ابن العلقمي اســم تفوق شهرته شهرة الخيانة، يكفي أنك إذا أردت أن تتهــم أحدًا بتهمة الخيانــة تقول: «يا حفيد العلقمــي». الخيانة أو الغدر وهي من أكثر الأشياء ألمًا للنفس.

ومثلهــا مثــل كل شيء لها أعــلام في التاريخ ونجــوم في عالم الغدر والخيانــة، وقصص أهل الغدر والخيانة في التاريــخ العربي كثيرة، ولكن ابن العلقمي اسم لا تُذكَر الخيانة عند العرب إلا وكان ابن العلقمي على رأسها، ولكن ماذا فعل حتى يصبح اسمه رمزًا من رموز الخيانة؟

هو صاحب الجريمة النكراء ٦٥٦ هجرية، كان وزير الخليفة العباسي، وهو مَن ســلَّمه إلى هولاكو زعيم التتار، وبداية الخيانة عندما اســتغل ضعف الخليفة المستعصم، وجهل معرفته في أمور الحكم، وكانت خطته هي:

١- إرسال معلومات الدولة إلى التتار.

٢- إضعاف الجيش.

٣- النهي عن قتال التتار.

◆ المؤامرة على الخليفة

كان الخليفةُ على مذهبِ أهلِ السُّـنةِ، كـما كان أبوهُ وجدهُ، ولكن كان لينًا ضعيفًا وعديم الخبرة في السياسـة والحكـم، فكان هذا الوزيرُ الرافضي يخططُ للقضاءِ على دولةِ الخلافةِ، وإبادةِ أهلِ السُّـنةِ، وإقامةِ دولـةٍ على مذهبِه؛ فاسـتغل منصبهُ وثقة المسـتعصم فيـه، إنها الثقة الزائدة، إنها تصريح من الحاكم وهبة لكي تفعل أي شيء ودون حساب، وبهذه الثقة اسـتغل غفلـةَ الخليفةِ عنه، وبدأ في تنفيـذِ مؤامراتهِ ضد دولـةِ الخلافـةِ، وكان الوزيرُ ابـنُ العلقمي يجتهـدُ في صرفِ الجيوشِ، وإسـقاطِ أسـماء العسـكر من الديوانِ، فكانت العسـاكرُ في آخرِ أيامِ المسـتنصرِ قريبًـا من مئة ألـفِ مقاتلٍ، فلـم يزَلْ يجتهـد في تقليلهم، إلى أن لم يبـقَ سـوى عـشرة آلاف، كل ذلك ولم يتنبه المسـتعصم لهذا الخائـن، وأنـا أتعجب من هؤلاء البـشر! كيف تكون حاكـمًا على بلاد لهـا طولها وعرضها وتكون بهذه السـذاجة التي لا تأتي إلا من إنسـان مسـتهتر بملايين النـاس التي تحت حكمـه أو عن طيبـة تصل إلى حد الغفلة؟! فهل الخطأ أن تكون إنسانًا طيبًا ولا تحمل في قلبك إلا الثقة؟! فتأمل معي هذه الحادثةَ الكبرى والخيانةَ العظمى، واعتبِر بطيبةِ بعضِ البـشر إلى حد الغفلةِ بتقريـبِ أعدا أعدائهم، فهـذا الراجل كان وزيرًا للمستعصمِ أربعَ عشرةَ سنة، وقد كان له من التعظيمِ ما لم يحصل لغيرِهِ من الوزراءِ، فلم يجد هذا التسامحَ والتقديرَ في إزالةِ الخيانة التي يحملها في قلبه، وأوهم الخليفةَ وحاشيتهُ أن ملكَ التتارِ يريدُ مصالحتهم، وأشار

عــلى الخليفةِ بالخروجِ إليهِ، والمثولِ بين يديــهِ؛ لتقع المصالحةُ، على أن يكــونَ نصفُ خراجِ العراقِ لهم، ونصفهُ للخليفةِ، فخرج الخليفةُ إليهِ في سبعمئة راكبٍ من القضاةِ والفقهاءِ والأمراءِ والأعيانِ؛ فتم بهذهِ الحيلةِ دخــول بغداد وقتلُ الخليفةِ ومَن معهُ من قادة الأمةِ وطلائعها دون أي جهــدٍ من التتارِ، وقد أشــار المنافقون على هولاكــو ألا يصالحَ الخليفةَ، وقــال الوزيرُ ابــنُ العلقمي: «متى وقع الصلحُ لا يســتمرُ هذا إلا عامًا أو عامــين، ثــم يعودُ الأمرُ إلى مــا كان عليه قبل ذلــك». وقتلَ هولاكو الخليفــة في ١٤ من صفر ســنة ٦٥٦ هجريًّا بعد حصــار ١٢ يومًا، مات الخليفة المســتعصم، ضحية الخيانة والثقة فيمن لا يعرف معنى الثقة، وما أكثرهم في هذا الزمان!

بعد هذا المشــهد الحزين دخــل التتار بغداد، وألقــى أهل المدينة الســلاح، وبعد أن قُتِلت هذه الصفــوة من القادة ورجال الدولة، أصدر هولاكــو الأوامــر باســتباحة بغداد عاصمــة الخلافة العباســية، والأمر باستباحة أن يفعل الجيش التتري فيها ما يشاء.

وانطلق جنود هولاكو الهمج ينهشون في أجساد نساء بغداد، وأهلك جيشــهم الأخضر واليابس، دُمِّرت مكتبة بغداد وبيت الحكمة الذي كان يحتوي على وثائق في الطب والفلك، يُقال إن نهر دجلة كان أسود؛ لكثرة الحــبر من كميات الكتــب التي طرحها الجيش المغــولي في النهر، وضاع مجهود أكثر من ٦٠٠ عام من العلم في النهر.

وقد سقطت الخلافة العباسية بعد مقتل الخليفة دهسًا، لُف بواسطة

السـجاد، وجعلوا الخيل تدوسـه ويُضرَب حتى الموت، ثم قُتِل كل أهله وأبنائه، ما عدا واحدًا أرسـلوه إلى منغوليا، مات مليون شـخص؛ بسبب الخيانـة، ووُضِع الخائن حاكمًا على بغـداد، ولم يعِش كثيراً بعد معاملة التتار له، كان جلوسـه على العرش مجرد جسد ميت لا يُقدِّم أو يؤخر، وكانت الإهانـة المباشرة له تأتي من صغار الجند لا من القادة، كان هذا يشتمه، وهذا يصفعه، بعد أن كان الجند والملوك والسلاطيين تقف على بابه؛ إنه ثمن الخيانة، ولم يتحمل كثيراً ومات بعد أشهر قليلة من خيانته.

◆ **ميلاد دولة :**

للدولـة عمر مثل البشر، حيـاة وموت، بداية ونهايـة، ويكون فيها الطفولة وهي البداية، والشـباب وهي قوة الدولة، ثم عجز وشيخوخة وهي النهاية، وبعضها يُولَد ضعيفًا ومريضًا، يموت في مهده، والآخر يُولَد صحيحًا معافًى، ولكن مهما يطول عمره أو يقصر تأتي النهاية.

والدول الحديثة تعلمت من أسـباب سـقوط الدول القديمة؛ فطال عمرها أكثر، ولكن كما لكل شيء بداية أيضًا له نهاية.

بسط الفاطميون سيادتهم على مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي، الـذي خلف عبيد الله المهدي، حين اسـتطاع قائده جوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م، وأطاح بالدولة الإخشيدية التي شاخت بعد موت كافور وضربها الفقر والمرض والوباء، وأسـس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م، وقصر القائد المعز الذي انتقل إلى القاهرة سـنة ٣٦٢

هـ ٩٧٣ م، وجعلها عاصمةً له تُنافِس عاصمة الخلافة العباسية. وترك أمر المغرب إلى حُكْم قبيلة صنهاجة البربرية الذين عُرِفت دولتهم باسم دولة بني زيري؛ نسبةً إلى أول ملوكها بلكين بن زيري الصنهاجي، وأصبح للفاطميين حُكْم الشام والحجاز، ولم تكُن قد سقطت الخلافة العباسية حتى أيام المستنصر، لكنها قد شاخت وانهارت أركانها، حتى سقطت سنة ٦٥٦ هجريًّا، وذلك على يد المغول.

وقد زحفوا حتى وصلوا إلى بغداد التي كانت عاصمة الدولة العباسية، وكان يحكمها الخليفة المستعصم بالله الذي أرسل إليه هولاكو رسالة تحتوي على لغة التهديد والوعيد؛ حتى يسلمهم عاصمة الخلافة العباسية بغداد.

وعندما علم الخليفة أن ليس في استطاعته صد هذا العدوان ذهب إليه بنفسه؛ لكي يطلب منه الأمان لسكان المدينة عندما يتسلمها، وهي الغلطة التي لا يتعلم منها العرب على مدار التاريخ، نفس الذي حدث في الأندلس مع الخليفة أبي عبد الله الصغير، مع الفرق أن الأخير لم يُقتَل مثلما حدث مع المستعصم، انظر ماذا حدث؛ حتى تتعلم الدرس.

وافق هولاكو على طلب الخليفة، ولكن عندما فُتِحت أبواب المدينة، عاثوا في الأرض فسادًا، وقتلوا ونهبوا وخربوا كل ما تقع عليه أعينهم، وهكذا سقطت الدولة العباسية.

المجاعة الكبرى
الشدة المستنصرية

المكان: المحروسة.
التاريخ: من (٤٥٧ هـ = ١٠٦٤ م) إلى سنة (٤٦٤ = ١٠٧١).
المدة: سبع سنوات متصلة.
النتائج المترتبة على هذه المجاعة: وفاة ثلث سكان مصر.
سبب تسميتها بهذا الاسم: حدوثها في عهد المستنصر.

◆ الخليفة الفاطمي المستنصر في سطور..

المستنصر بالله، أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم أبي علي منصور بن العزيز بن المعز العبيدي الفاطمي، وُلِد ١٧ جمادى الآخرة ٤٢٠ هـ الموافق ٣ من يوليو ١٠٢٩ م، وأصبح الخليفة في شعبان سنة ٤٢٧ هـ؛ أي وهو دون الثامنة، وذلك بحسب قاعدة توريث الأمر لأكبر الأبناء عند الدولة الفاطمية، وفي عهد المستنصر بالله انحسر سلطان الفاطميين عن بلاد الشام باستيلاء السلاجقة عليها، وزالت دولتهم في جزيرة صقلية باستيلاء النورمان عليها بزعامة (روجر النورماندي) سنة ٤٦١ هـ، وعم الوباء الذي يُعَد أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، واقترنت هذه الشدة، التي اصطلح المؤرخون تسميتها بسنين الشدة العظمى، بقيام الحروب الأهلية، حتى تدارك الأمر بدر الجمالي

والي عكا، وقد استدعاه المستنصر؛ فأعاد النظام وإصلاح البلاد، وتزوج المستنصر ابنته وولدت له ابنه المستعلي، وقد أعقب المستعلي خلفاء منهم المخلوع ومنهم المسموم، إلى أن انقضى عهد الدولة الفاطمية سنة ٥٦٤ هـ على يد صلاح الدين الأيوبي وقيام الدولة الأيوبية.

كان الضعف والعجز والمرض، يدب في أوصال الخلافة العباسية السُّنية بعد أن تقسمت وتفككت الدولة الكبيرة إلى دول صغيرة، والدول الصغيرة تقسمت وصارت ممالك أصغر، لا يربطها بدولة الخلافة سوى الدعاء للخليفة العباسي على المنابر.

وقد شهد هذا الوقت ثلاث خلافات، تنازعت السلطة؛ الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الأموية في قرطبة، والخلافة الفاطمية في إفريقية، وفي سابقة هي الأولى في التاريخ أصبح، يُوجَد للمسلمين ثلاثة من الخلفاء في ثلاثة أماكن مختلفة، يقتسمون الحكم ويتنازعون عليه؛ مما أضعف وشق صفوف الأمة كلها؛ فأصبح الناس فِرقًا؛ أموية وفاطمية وعباسية، وما أشبه اليوم بالبارحة!

◆ **خلفاء الدولة الفاطمية في مصر:**

المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ ٩٥٢ - ٩٧٥ م).
العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ٩٧٥ - ٩٩٦ م).
الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ ٩٩٦ - ١٠٢٠ م).
الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م).
المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م).

المستعلي (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ ١٠٩٤ - ١١٠١ م).
الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٣ هـ ١١٠١ - ١١٣٠ م).
الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ، ١١٣٠ - ١١٤٩ م).
الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ ١١٤٩ - ١١٥٤ م).
الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ، ١١٥٤ - ١١٦٠ م).
العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ، ١١٦٠ - ١١٧١ م)، وهو آخر الخلفاء الفاطميين قبل إعلان الدولة الأيوبية.

◆ **الحياة الفاطمية:**

كان للفاطميين أثر كبير في التاريخ، والمصري بشكل خاص، وارتبطت الكثير من العادات والتقاليد بالدولة الفاطمية في مصر؛ حيث ما زال التأثير الفاطمي يظهر في شوارع وحارات مصر حتى الآن، في أثناء شهر رمضان والمولد النبوي الشريف.

وما زال المصريون يتذكرون موكب حصان الخليفة الذي كان يخرج به في المناسبات الرسمية والاحتفالات الدينية والقومية، فيصنعون حلوى تشبه هذا الحصان تُباع للأطفال في المولد النبوي.

وارتبط العصر الفاطمي بكثير من الحكايات الشعبية المصرية، ويتناقلها الناس من جيل إلى جيل، مثل: حادثة نقل جبل المقطم على يد سمعان الخراز، والحواديت المرتبطة بست الحسن أخت الحاكم بأمر الله، وغيرها الكثير.

◆ **أبواب المحروسة :**

كان للقاهرة ثمانية أبواب، لكل جنب من جوانبها الأربعة بابان، ففي الجنوب: باب زويلة وباب الفرج. وفي الجهة البحرية: باب النصر وباب الفتــوح. وفي الجهة الشرقية: باب القراطين وبــاب البرقية، أما في الجهة الغربية: فكان فيها باب ســعادة وبــاب القنطرة. وكان من أهم حارات القاهــرة الفاطمية حارة الــروم، وحارة الأمراء، وحــارة الديلم، وحارة الباطلية، وحارة الكافوري، وحــارة قائد القواد، وحارة العطوف، وحارة الوزيرية، وحارة المحمودية.

◆ **باب زويلة :**

ومنــه دخل أمــير المؤمنين الخليفة المعــز لدين اللــه، إلى العاصمة الجديدة التي أمر بتأسيســها (القاهرة)، وأيضًــا على باب زويلة قد تم شــنق طومان باي ســلطان مصر، وتم تعليق رءوس رسل هولاكو قائد التتار.

ولا يدخل من هذا الباب إلا أهل الدولة من الأمراء وعِلية القوم من التجــار، وكان يجلس على المدخل متــولي الضرائب للدولة أيام المماليك؛ لهــذا كان يطلق عليه عامــة الناس باب المتــولي. +وكان الناس في هذا الزمــن أربعة أقســام، وهم: الأمــراء وكبار الدولة والعلماء والشــعراء. والجند والحرس الخاص للأمراء. والتجار وأصحاب الحرف والفلاحين.

◆ الكنيسة في عهد المستنصر

البطريرك الذي حضر المستنصر والشدة بعد وفاة الأنبا زخاريس البطريرك الرابع والستون (١٠٠٤ - ١٠٣٢)، الأنبا شنودة الثاني البطريرك الخامس والستون (١٠٣٢ - ١٠٤٦)، لما خلا الكرسي المرقسي، تردد الأساقفة في اختيار مَن يصلح، وأخيراً استقروا على الراهب شنودة المقاري، ورقوه إلى رتبة القمصية، ثم ساروا به إلى الإسكندرية لرسامته، كان حاد الطباع يسيء معاملة الناس، ذكر عنه تاريخ البطاركة أنه أحب المال وجمع منه الكثير ووهبه لأهله، وكان محبًّا لمجد هذا العالم، ولم يكُن يرسم أسقفًا إلا بعد أخذ مبلغ من المال من المتقدم للأسقفية، وغضب منه شعب الكنيسة، وقد حضر نقص مياه النيل الأول والغلاء، وفي آخر أيامه أُصِيب بصداع شديدٍ مع سعال، وكان يحس وكأن نارًا تشتعل في رأسه، كما لحقه وجع في أذنه، وظل مريضًا لمدة ثلاث سنين إلى أن تُوفِّي، وكان ذلك في ٢٩ أكتوبر ١٠٤٦ م.

الأنبا خرستوذولوس البطريرك السادس والستون (١٠٤٦ - ١٠٧٧)

جلس على كرسي البطريرك ٣١ عامًا، وقد عاصر الشدة المستنصرية، وكذلك الوزير اليازوري، الذي كان على خلاف معه، وكان الوزير رجلًا طاغية؛ كما قال عنه ابن إياس المصري المؤرخ، حتى أمر الخليفة المستنصر بقطع رأسه، تعرض الأنبا كذلك لمتاعب من الأساقفة أنفسهم، فقد وفد على القاهرة جماعة من الأساقفة، واتفقوا على خلع البابا؛

بدعوى أن رسامته كانت ناقصة؛ حيث لم تُتلَ بعض الصلوات، وكان هذا هو السبب الظاهري، أما الحقيقة فكانت تُوجَد خصومة بين الأنبا يوحنا أسقف سخا وبين البطريرك؛ حيث كان الأنبا خرستوزولوس حازمًا في التعامل معه، ولكنه استطاع بذكائه وتدخُّل أحد المشايخ، وهو الشيخ أبو زكري يحيى، صاحب ديوان الملكة، أن يزيل ما في نفسيهما، وصليا قداسًا معًا. وقد عاصر الوزير بدر الجمالي، وقد حدثت له حادثة أن ادعى ضده أحد المسيحيين عند (بدر الجمالي)، أنه على صلة ببلاد النوبة، وأنه أمر بهدم مسجد هناك عن طريق المطران، وأنه يُحوِّل مسلمي الحبشة إلى مسيحيين، فلما أرسل الجمالي ليتحرى الحقيقة؛ وجد أن كل هذا كذب، وكان قد ألقى القبض على البطريرك، وهكذا أعاده إلى كرسيه مكرمًا، وألقى القبض على المدعي. وهو البطريرك الذي عاصر الشدة كلها، وقد كان رجلًا مخلصًا إلى دينه وشعب الكنيسة، وقد اهتم ببناء وتجديد الكنائس القديمة، في أول زيارة له إلى القاهرة رأى اتخاذها مقرًّا للرياسة بدلًا من الإسكندرية؛ بسبب وجود الحكام المدنيين فيها، واضطراره إلى السفر وللتشاور معهم في شتى المناسبات بوصفه المسئول الأول عن الأقباط؛ جعل وجوده في الإسكندرية أمرًا صعبًا، ورأى أن يجعل من الكنيسة المعلقة مقرًّا له، ولقد وضع في عهده قوانين طقسية، بدأ بإصدارها في أول أغسطس ١٠٤٨، بعد أقل من سنتين من رسامته، أولها خاص بطقس المعمودية، وأخرى خاصة بالعبادة وخشوع المؤمنين في دخول الكنيسة، وطاعة الزوجات لأزواجهن، والصوم الأربعيني

وأسبوع الآلام وطقس الخماسين، وصوم الرسل، وصوم يومَي الأربعاء والجمعة، وصوم الميلاد وعيد الغطاس.

منع إضافة أي شيء إلى القربان؛ لأنه كان قد تسرب من الأرض وضع ملح في القربان المقدس.

أبطل عادة الاحتفاظ بقربان أحد الشعانين إلى قداس خميس العهد.

سعى إلى زيادة العلاقة بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة إنطاكية، وافق على أن يذكر كل بطريرك الآخر في قداسه.

ماذا كان الحال داخل الحكومة والقصر؟

كان قصر الخليفة من أفخر وأعظم ما عُرِف في تاريخ الدولة أو الخلفاء في هذا الوقت، فكان يضم بين جدرانه أكثر من عشرين ألف نسمة، ويقوم على حراسة القصر في كل ليلة ألف حارس ما بين فارس وجندي، ويبلغ عدد المساكن حوله نحو خمسة عشر ألف بيت متقنة البناء، يفصل بعضها عن بعض الحدائق والبساتين، كما كان يُوجَد عدد كبير من الحوانيت حوله، وكان قصره من أفخر وأعظم القصور في تاريخ الخلفاء.

كانت ثروات الخليفة أكثر من ثلاثين مليون دينار من الذهب الخالص، غير التحف والهداية التي كانت في ساحة القصر، وكان الرخام يزين عواميد القصر، وأنفق المستنصر مبالغ كبيرة من ثروته في تجديد جامع عمرو بن العاص في الفسطاط بعد أن تهدمت أجزاء من المسجد، لقد كان الخليفة المستنصر رجلًا طيب القلب، كانت البداية الأولى لعصر

المستنصر بالله زاهية، واهتم بالصناعة والزراعة، ويرجع الفضل في ذلك إلى الوزير القوي أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، وكان قد سبق له أن عمل وزيرًا في عهد الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر، وأضافت له هذه السنوات خبرة ودراية بشئون الدولة؛ فسيطر على الدولة وأحسن سياستها وإدارة شئونها حتى تُوفِّي في (رمضان ٤٣٦ هـ، ١٠٤٥ م) بعد وزارة دامت ثمانية عشر عامًا، ولقد كان لوفاته أثر كبير على اقتصاد وقوة الدولة، بل على الخليفة نفسه، لقد كان الخليفة يعتمد عليه في شئون الدولة والخارجين عليه، بعد وفاته أصبح ضعف الخليفة واضحًا، وأصبحت الكلمة في القصر وخارج القصر إلى أمه، وكانت أمه سودانية الأصل تميل إلى بني جنسها، وقد أحضرت عبيدًا وجنودًا وجواري منهم، كان الجند خليطًا من الشام والمغرب والترك، وسبحان الله، نجوم تسطع وأخرى تموت! وجاء محمد اليازوري إلى مصر بعد أن عُزِل من القضاء، وبمساعدة أحد رجال الدولة استطاع أن يكون من رجال أم الخليفة، وعمل في ديوانها ثم في القضاء، وسطع نجمه وقوي نفوذه وأصبح وزيرًا، ثم وزير الدولة، وقد عينت أم الخليفة ابنه نائبًا له في أعماله، وآخر على قضاء القدس، وأصبحت الكلمة لأم الخليفة والوزير اليازوري، وكأن الخليفة لا يسمع ولا يرى، وكان هو نفسه سببًا فيما سوف يحدث من فتن؛ بسبب ضعفه.. نعم، كان رجلًا طيب القلب، وليس رجل دولة ولا صاحب قرار، وفي السياسة الحاكم الضعيف لن تستمر دولته، وسوف تنهار أركانها سريعًا جدًّا، لقد تحمَّل الرجل تبعات قراراته وضعفه وقلة

حيلتــه، ولن يجد إلا حصيرة يجلس عليها ويــأكل من الصدقة، وعندما يدخل عليه أحد الخارجين عليه لكي يقتله ويجدوه جالسًا على الأرض ولا يستطيع الوقوف يصعب عليه حاله ويتركه، لقد كان رجلًا طيب القلب؛ تبرع بكل ما يملك من أجل أن يدفن الموتى، وكان من الممكن أن يســافر إلى بغداد مع أهله ويأمن بذلك على نفسه وحياته، ولكن تحمل تبعات ضعفه أمام رغبات أمه، ولكن لن ينفع الندم؛ لأن الجوع والمرض لا يفرقان بين خليفة وصعلوك، الكل سوف يجوع، ويصف ابن إياس حال الخليفة المســتنصر، ويقول: «ولم تجد هذه النفائس التــي يملكها الخليفة نفعًا، وبقي محاصرًا بالقاهرة يتكبد آلام الفاقة والعوز، إلى درجة الاســتعطاء؛ فطلب إحسانًا من بعض النسوة، وكانت مشهورة بالغنى والعطاء، ولكنها ســبقت فوزعت ثروتها على الجياع، بيــد أنها لم ترفض طلبه؛ فأمرت له بصحن من الشــوربة ورغيفين كل يوم لســد جوعه، أما نســاؤه فإنهن همن على وجوهن يســتجدين، فخرجن من القصر مكشوفات الرءوس، حافيات الأقدام من سوء الحالة، وبمضي الأيام خارت قواهن من الجوع؛ فســقطن إلى الأرض، وماتت الواحدة تلو الأخرى، فكان الجياع يأخذون الذين يسقطون من الموت ويلتهمون لحومهم؛ كالتهام الجوارح للجيف، ولم يبــقَ للخليفــة ســوى بغلــة وغــلام وقبقــاب وحصــيرة فقــط.. ونبــش الناس قبور الخلفاء الذين دُفِنــوا في مصر، وأخذوا النفائس التي وجدوها فيها، واشتروا بها طعامًا، وتطاولوا إلى ما في أعناق نساء الخليفة، وما زال جنوده يجردونه حتى بلغت الفاقة به إلى درجة الاستعطاء، ولم

يقــدر الخليفة على حماية نفســه ودفع الأذى عن بيتــه؛ فاضطره قادة حرســه من الأتراك إلى بيع القناطــير المقنطرة من النفائس التي جمعها هو وأجداده وورثها عن آبائه مما لا يدخل تحت حصر؛ فقسَّــموها على أنفسهم وباعوا النفائس الأخرى بأبخس الأثمان.. وكان من هذه النفائس التي اســتلبها الجنود الأتــراك خريطة مطرزة بأســلاك الذهب الإبريز ومرســومًا عليها جميع ممالك الأرض في ذلك الوقــت بجبالها وأنهارها ومدنها وشــوارعها، وقد كان الخليفة المعز قد أمر بصنعها فصُنِعت له، هذا عدا الســيوف والدروع المرصعة بالأحجــار الكريمة والحلي، وغيرها مما كان يهديه ســلاطين وملوك الأرض إلى الخلفــاء.. كل هذه النفائس لعبت بها أيدي العابثين من الجنود، واســتولت عليها وهي لا تعرف لها قيمًا، وفي أثناء الاســتيلاء على هذه النفائس شــبت النار في المفروشات الحريرية؛ فالتهمت النيران ما تبقى منها».

بالطبع لم يكُن الســبب الوحيد في تلك الكارثة مجرد توقُّف الفيضان ســبع ســنوات، ولكن كانت سياســة الدولة طرفًا هي الأخــرى. كانت الحكومــة والوزراء تتغير حســب الرغبة لســيدة القــصر وأعوانها، كان تدخُّل أم الخليفة وأعوانها في شــئون الدولة، وضعف الخليفة، والصراع بين طوائف الجند وأصحاب المناصب والسياسيين على إرضاء أم الخليفة للحفاظ على مناصبهم، والطمع في الحكم- كلها من الأســباب الرئيســة فيما حدث، إنها النفس البشرية وحب التملك والسلطة، والنفس أنواع.. النفس الأمارة بالســوء: هي مســتقر الشرر، وهي شــيطان النفس،

ومستقر كل قبح ورذيلة، والدافعة لارتكاب الآثام والمعاصي كلها، وهي التي تدفع الإنسان لارتكاب المعاصي، وكل ما يغضب الرحمن ويثير سخطه.

النفس اللوامة: هي النفس التي تكثر من اللوم لصاحبها، ومعنى ذلك أن صاحب هذه النفس إذا وقع في الرذائل والآثام؛ فتوبخه هذه النفس، وتندم وتستشعر الندم والتقصير في حق الله، وتحث صاحبها على تجديد التوبة والاستغفار والبعد عن الآثام والمعاصي.

نحن هنا أمام كارثة يصنعها عن عمد وإصرار حكام خانوا الأمانة.

كان الخليفة رجلًا طيب القلب، لكنه كان ضعيفًا، والرجل الضعيف لا يصلح رجل دولة؛ فقد ترك الدولة للفتن والمنازعات ورجال الدولة الأغنياء تتحكم في عامة الناس، وها هو يدفع ثمن ذلك غاليًا، بقي الوزير اليازوري في منصبه حتى أمر المستنصر بالقبض عليه بوشاية اتهمه فيها أعداؤه بأنه على صلة مع السلاجقة ويدعوهم لغزو مصر، أمر الخليفة بقطع رأسه، وكان ذلك في ٢٢ صفر من عام ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م، وبذلك انتهى أمره.

وبعد قتله اشتد حال الفوضى والنزاع بين الوزراء والفتن بين طوائف الجند؛ فاختلت الأحوال وتزعزعت أركان الدولة والحكومة، وطمع في الحكم كل طامع، حتى تعاقب نحو ١٢ وزارة في بضع سنين.

قال المقريزي: «فلما قُتِل الوزير أبو محمد لم ترَ الدولة صلاحًا، ولا استقام لها أمر، وتناقضت على أمورها، ولم يستقر لها وزير تُحمَد

طريقته، ولا يُرضَى تدبيره، وكثرت السعاية فيها، فما هو إلا أن يستخدم الوزيــر حتى يجعلوا سُــوقَتهم ويوقعوا به الظن حتــى ينصر، ولم تطل مدته».

◆ قصور مياه النيل:

لقــد وصل ارتفاع النيــل إلى ذراعين، وتغيرت رائحتــه وطعم المياه، وكانــت تظهر به الطحالب الخضراء، ثــم تكالبت الأوبئة على الناس، لم يكُن الناس يســتفيقون من وباء حتى ينزل عليهم وباء أشــد، ثم اشتد عنفــه، وبدأت موجة أخرى في ســنة ٤٥٧ هجريًّا من الغلاء، وكثر الموت حتى كان يمــوت كل يوم ما كان يحصيه ديــوان المواريث بعشرة آلاف نفــس غير مَن لا يعرفون من الموت مــن صعاليك الناس، ويُقال إن من شــدة الموت كان لا يجد الديوان أحدًا يرث الميت؛ لأن كل أهله أصبحوا أمواتًــا، يا الله، ما هذا؟! تخيل معــي أن بيتًا كاملًا وعائلة كاملة تموت، حتــى لا يبقى وريث لها، تخيل لو كنت تعيش في هذه المحنة والابتلاء، ماذا أنت فاعل وأنت تقف وتشــاهد أهلــك وكل مَن تحب يموت أمام عينيك وأنت لا تستطيع فعل شيء، بل أنت لا تملك أن تنجو بنفسك من هذا البلاء العظيم! ثم بارت الأرض؛ لعدم وجود مَن يزرعها وعدم وجود المــاء، وكان الرجل يمــشي في الطريق فلا يقابل إنســانًا واحدًا، أصبحت المدن والقرى والأســواق خربة خاوية على عروشــها، ثم ضرب الطاعون مــصر وقراها؛ فــكان يموت في كل يوم ألف إنســان على مدى شــهور،

واشتد الوباء في العام التالي في القاهرة والمدن الأخرى، كان يموت الرجل من أهل البيت، ثم يموت أهل بيته قبل دفنه؛ بسبب انتشار الكوليرا الوبائية، وفي يوم مات عشرون ألفًا، وكان المستنصر يتحمل تكفين أكثر من عشرة آلاف نفس يوميًّا، ثم عشرين نفسًا يوميًّا، حتى افتقر وباع كل ما يملك، وتحولت القطائع والفسطاط إلى ديار خربة، واشتد نقص النيل، وأصبحت رائحة المياه كريهة، وكان يصحبها دود وحشرات تخرج مع الماء، بالطبع توقفت كل الزراعة؛ لنقص المياه وموت المزارعين، وبالتالي ماتت الماشية، وكانت جثث البشر والحيوانات على جوانب الطرقات تختلط ببعضها بعضًا؛ مما ساعد على انتشار الوباء والأمراض، وتوقفت الصناعة والتجارة؛ لعدم وجود الحرفيين أو التجار، وانتشرت البطالة، وبطبيعة الحال انتشرت السرقات وقطع الطرق؛ مما أدى إلى تفكك جميع مؤسسات الدولة بما فيها الجيش الذي تفكك تحت الحزبية والصراع القبلي، كان الجيش يتألف من الشوام والسودانيين والمغاربة والأتراك، وأصبحت كل طائفة تحمل للأخرى الخيانة والغدر والقتل، وانهارت قوة الدولة، وطُمِع الكل فيها وفي الخليفة.

انهار الاقتصاد؛ فتصاعدت الأسعار تصاعدًا لم يحدث من قبل، وضربت البلاد في مقتل وعمت المجاعة والفوضى والمرض في كل مكان في مصر. أصبح الناس يبيعون أطفالهم في الشوارع مقابل الطعام، وكانت الدار تُباع بطبق دقيق، وثمن الدجاج وصل إلى عشرين دينارًا، وتزايد السعر حتى بيعت بيضة الدجاجة بعشرة دنانير، وأصبح ثمن شربة الماء

بدينـــار، وأكل الناس الجيف والميتة؛ من فرط الغلاء، وبعد أن انتهوا من أكل القطط والكلاب أكل الناس بعضهم بعضًا، وعمت الفوضى والجريمة البلاد، وعجز الناس عن إطعام أنفسهم وإطعام أولادهم، ولم يعُد يُسمَع في الشـــوارع والحارات غير الصراخ والنحيب، وصوت عجلات نقل الموتى في كل أرجاء البلاد.

◆ **الهجرة:**

وانقطعـــت الطرق برًّا وبحرًا، وأصبحت المـــدن خربة خاوية بعد أن هاجر أهلها أو ماتوا، وتكدســـت الجثـــث في الطرقات، وضرب الطاعون البلاد؛ بســـبب تعفُّن الجثـــث والقمامة الملقاة في الشـــوارع والحارات، وأصبـــح الوباء في كل مكان؛ في الشـــوارع والطرقـــات والحارات، وأصبح النـــاس لا تســـتحم؛ من قلة المياه، ثم توقفـــت عملية دفن الموتى؛ لموت العمال الذين يعملون في المدافن، وتحولت مدن وشوارع البلد إلى مقابر جماعيـــة، ومدن وبيوت الأحياء إلى بيوت للموتى والأشـــباح، وكان يُباع الخبز كـــما تُباع التحف، وامتدات أيدي قُطـــاع الطرق والجند إلى نهب الأهالي بدل الحماية، وسقط القانون في غيابة الجب، وطُبِّق قانون الغابة، ورُفِعت راية واحدة، وهي البقاء للأقوى، ولا يُوجَد مكان لضعيف، وفرَّ الأهـــالي إلى العراق والشـــام والمغرب، حتى أم الخليفـــة وأهله فروا إلى بغداد، الخليفة نفسه قد باع كل ما يملك من تحف وأثاث وسلاح، وصار يجلس على حصيرة ويضع في قدميه قبقابًا مصنوعًا من الخشب الرخيص

مثــل العامة من الناس، وأصبح يعيش عــلى الصدقة بعد أن باع كل ما يملــك لدفن الموتى، وبعد ما أخذه الجنــد؛ فالجوع لا يرحم أحدًا؛ لذلك أرغم الجند الخليفة أن يبيع كل ما يملك؛ حتى يدفع لهم أجورهم، وكان يتكلف بتكفين الموتى؛ حتى لا يطرحهم ذووهم في الطرقات، فصرف كل ما يملك إلا حصيرة كان يجلس عليها، ولم يبقَ معه من الخدم والعبيد إلا غلام وحمار يركبه، وكانت تبعث له بنت أحد العلماء ببعض الطعام كل يوم على ســبيل الصدقة، وكان من شدة الجوع لا يقدر على النهوض أو الوقوف، ويروي البغدادي أن وزير البلاد لم يكُن يمتلك سوى بغل واحد يركبه، فعهد بالبغل إلى غلام ليحرسه، إلا أن الغلام من شدة الجوع كان ضعيفًا، فلم يستطِع أن يواجه اللصوص الذين سرقوا البغل، وعندما علم الوزير بسرقة بغله غضب غضبًا شــديدًا، إلا إنــه تمكن من القبض على اللصوص، وقام بشــنقهم على شجرة، وعندما اســتيقظ في الصباح وجد عظام اللصوص فقط؛ لأن الناس من شدة جوعها قاموا بأكل لحومهم.

ويروي المقريزي أن سيدة غنية من نساء القاهرة آلمها صياح أطفالها الصغــار وهم يبكون من الجــوع، لجأت إلى شــكمجية حليها وأخذت تقلــب ما فيها من مجوهــرات ومصوغات، ثم تتحسر؛ لأنها تمتلك ثروة طائلة ولا تســتطيع شراء رغيف واحد؛ فاختارت عقــدًا ثمينًا من اللؤلؤ تزيد قيمته على ألف دينار، وخرجت تطوف أسواق القاهرة والفسطاط فلا تجد مَن يشتريه. وأخيرًا استطاعت أن تقنع أحد التجار بشرائه مقابل كيس من الدقيق، واستأجرت بعض الحمالين لنقل الكيس إلى بيتها، ولكن

لم تكَـد تخطو بضع خطـوات حتى هاجمته جحافـل الجياع، فاغتصبوا الدقيـق، وعندئذٍ لم تجد مفرًّا من أن تزاحمهم، حتى اختطفت لنفسـها حفنة من الدقيق، وحزنت لما حدث من الجماهير الجائعة، فعكفت على عجن حفنة الدقيق، وصنعـت منها قرصًا صغيرة وخبزتها، ثم أخفتها في طيات ثوبها، وانطلقت إلى الشارع صائحة: الجوع الجوع.. الخبز الخبز.. والتف حولها الرجال والنساء والأطفال، وسارت معهم إلى قصر الخليفة المسـتنصر، ووقفت على مصطبة، ثم أخرجـت قرصًا من ثوبها، وأخذت تُلـوِّح بها وهي تصيح: «أيها الناس، فلتعلمـوا أن هذه القرصة كلفتني ألف دينار، فادعوا معي لمولاي الخليفة».

ولم تسـلم المكتبة الملكية من العبث، فقد أمـر ناصر الدولة بنهبها، وكان فيهـا مئـات الألوف من الكتـب والمخطوطات النـادرة، فأخذها الجنود وكانوا يتسـلون بتمزيقها، ولكن أحد قادة الخليفة أنقذ ما تبقى منها، وقام بحملها إلى الإسكندرية، ولكن في الطريق كان هناك مجموعة من قُطاع الطريق، الذين انتشروا في طول البلاد وعرضها؛ فاسـتولوا على الكتب، ونزعوا أغلفتها المصنوعة من الجلود الثمينة، وحولوها إلى نعال يلبسـونها، أما الأوراق فقد أُشـعِلت فيها النار، وما بقي منها تركوها في الصحـراء ورفعتها الرياح، وقد شـاهدها الناس وهـي تتطاير على أحد التلال، وأطلق الناس فيما بعد على هذا التل «تل الكتب».

أما نسـاء وجواري القصر فقد خرجن مكشـوفات الرءوس حافيات الأقدام؛ من شـدة الجوع.. إنه الجوع الذي لا يرحم أحدًا، ولا يفرق بين

نســاء القصر أو نســاء بواب القصر.. نعم، أنا معــك، قد يفرق في أنواع الطعام عندما يكون هناك طعام، لكن في الجوع لا فرق، وهكذا ضُرِبت البلاد في مقتــل؛ جوع ووباء وعطش وفــوضى، ويجتمع المرض والجوع على مَــن تبقى من الأحياء، ليصل خراب الديار إلى أقصى الذروة وحتى يكتمل الفقر والخراب، يقوم صراع بين طوائف العســكر، ويتمرد الجند على الخليفة، وتصبح البلاد على أبواب حرب أهلية، وحُوصِر المســتنصر في قصره، ولم يكُن الخليفة رجلًا قويًّا، ولم يبطش بأحد من الثائرين عليه والمتمردين؛ فطمع الجند وقادتهم فيه وفي الحكم.

الأسوأ لم يأتِ بعد
شريعة الغاب

وتزايدت الحال سوءًا، حتى أكل الناس بعضهم بعضًا، يقول البغدادي والكلام هنا له: «وحكى لي مَن أثق به أنه مرَّ على امرأة وبين يديها ميت قد انتفخ وانفجر وهي تأكل من أفخاذه؛ فأنكر عليها، فزعمت أنه زوجها.. فكانوا في بادئ الأمر يقفون بالطرقات فيقتلون مَن يظفرون به، ثم يقطعون لحمه ويأكلونه، وكانت جماعة من الناس تجلس بأعلى بيوتها ومعهم حبال فيها خطاطيف، فإذا مرَّ بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرَّحوا لحمه وأكلوه، وعُرِف هذا الزقاق الذي كانت تقوم فيه هذه العمليات بزقاق القتل، وتعقبتهم الشرطة حتى تم القبض عليهم وإعدامهم بعد ذلك.

ثم تعدوا إلى أكل الصغار، وكثيرًا ما يُعثَر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون؛ فيأمر الخليفة بإحراق الفاعل.. وقُبِض على رجل اتُّهِم بخطف ابن جاره وقتله، ثم أكله؛ فاعترف بأنه اتفق مع أبي الطفل على ذلك، وشاركه لحمه؛ فأُعدِما.. وقُبِض على رجل كان يقتل النساء والصبيان، ويدفن رءوسهم وأطرافهم، ويأكل لحمهم، ثم يبيع الفائض؛ فأُعدِم.. ورأيت صغيرًا مشويًّا في قُفَّة مع رجل وامرأة أُحضِرا لقصر الخليفة؛ فقالا: نحن أبواه. فأمر بإحراقهما».

ونبــش الناس القبور، وأكلوا الموتى، ونبشــوا قبــور الخلفاء، وأخذوا النفائس الموجودة فيها، واشتروا بها طعامًا، ثم تطاولوا على ما في أعناق نســاء الخليفة. ولم يقــدر الخليفة على حماية نفســه؛ فقامت القوات الخاصــة بحراســته ببيع ما تبقى لــه من نفائس جمعها هــو وأجداده وورثها عن آبائه، وحتى تعرف حجم الدمار والهلاك الذي أصاب الناس؛ فإن قــرى وضواحي بكاملها خلت من الســكان؛ لموتهم أو هجرتهم إلى المدينة، وأُغلِقت الدكاكين، وكان المســافرون يدخلــون القرية، فلا يروا فيهــا أحدًا ولا نافخ نار، وأصبحــت البيوت مُفتَّحة أبوابها وأهلها موتى.. مات في هذه الشدة ثلث سكان مصر في هذا الوقت.

◆ **نهاية الغمة:**

اتصل الخليفة المســتنصر سرًّا بوالي عكا (بــدر الجمَّالي)، وكان أرمني الأصــل يدين بالــولاء للخليفة، وحمَّل الخليفة رســوله السري رســالة احتوت على ثلاثة أوامر:

القضاء على الفِتنة التي دبَّت في الجيش.. وقتل الخارجين عليه، وتولِّي وزارة مــصر، وكان شَرطه الوحيــد إلى الخليفة أن يدخل مصر بجيشــه وجنوده الذين يثق فيهم، وكان له هذا.

فهاجــم بدر (مصر) بجيش من أهل الشــام عــن طريق البحر حتى يفاجئ الجنود الأتراك بالرغم من مُعارضة قادة جيشــه، ووصل إلى ثغر دمياط، وأنزل بها الجنود، وســار في الدلتــا، ففتَك بالقواد الأتراك، وبدأ

في قتال الخارجين على المستنصر، ثم بدأ في إعمار وبِناء الجسور التي تهدَّمت، وساعد الفلَّاحين والصناع والتجار، وعاد الأمن من جديد إلى البلاد، وانتهت الغُمَّة على أيدي أمير الجيوش (سيف الإسلام بدر الدين الجمالي)، وهو اللقب الذي لقَّبه به المستنصر بعد أن أوقف التمرُّد والفوضى، وحصَّن القاهرة، وبدأ النِّيل يعود شيئًا فشيئًا.

وشيَّد ثلاثة أبواب ضخمة هي:

باب النصر وباب الفتوح، بُنِيا سنة (٤٨٠هـ: ١٠٨٧م)، وباب زويلة (المتولي)، بُنيَ سنة (٤٨٤ هـ: ١٠٩١ م)، وجدَّد الكثير من الجوامع، وبنى جوامع جديدة في القاهرة والإسكندرية وجزيرة الروضة، مثل مسجده الذي بناه بماله الخاص، ويُسمَّى مسجد أمير الجيوش أو (الجيوشي)، والذي بناهُ على حافة جبل المقطم سنة (٤٧٨ هجرية: ١٠٨٥ م)، ويشرف الآن على قلعة صلاح الدين الأيوبي.

كما أسَّس حيَّ الجمالية بالقاهرة الذي سُمِّي باسمه. ومن كثرة حُبِّ الناس له كانوا يقولون عندما يلقونه مُتهلِّلين:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وظل اللقب الذي لقبه به الخليفة (أمير الجيوش سيف الإسلام بدر الدين الجمالي).. ثم تزوج الخليفة ابنتَه، ومكث أمير الجيوش بمصر عشرين سنة، وكان سببًا من الله في كشف الغُمة. وكأن القدَر يكتب النهاية له هو والخليفة؛ فقد مات بدر الدين هو والخليفة في سنة

واحدة في ١٨ من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ - ٢٩ ديسمبر ١٠٩٤م، عن عُمر يناهز سبعة وستين عامًا، بعد حُكم دام نحو ستين عامًا؛ وبذلك انتهت أصعب مِحنة في تاريخ مصر.

بعد وفاة الخليفة المستنصر، آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء، أقصى الوزير الأفضل ابن الوزير بدر الجمالي أكبر أبناء الخليفة (المستنصر نزار) من الولاية، وعيَّن ابن أخته الخليفة الثاني (أحمد المستعلي) سنة ١٠٩٥ م - ٤٨٧ هـ ودارت نزاعات مريرة بين الأخوين قتل فيها (نزار)، وتمكَّن (المستعلي) من السيطرة على الحُكم. ويُنسب إلى (نزار) أكبر أبناء الخليفة المستنصر بالله، مذهب الشيعة النزارية. منذ هذا الوقت انقسم الإسماعيلية إلى فرقتين: الإسماعيلية المستعلية (أتباع الخلافة الفاطمية في مصر)، والإسماعيلية النزارية (أتباع نزار)، ودول اللي استقروا في قلعة الموت، ثم في الشام، واتعرفوا تاريخيًّا باسم (الحشاشين النزاريين)، وأصبحوا أشد أعداء فاطمية مصر، وانتهزوا كُلَّ فرصة حتى ينقضوا عليهم.

كان من سوء حظ الخليفة (المستعلي) أنه وقَع عليه عِبء التصدي للحملة الصليبية الأولى التي استولتْ على القُدس سنة ١٠٩٩م.

جهَّز الوزير (الأفضل بن بدر الجمالي) جيشًا لاستعادة القُدس، والتقى الصليبيين بقيادة (جودفري) عند (عسقلان)، ولكنَّ الفاطميين هُزموا هزيمة نكراء، وقتل من المسلمين عشرة آلاف، وفرَّ الوزير الأفضل

غربًـا حتى عاد إلى القاهـرة؛ وبذلك تقلَّصت أمـلاك الخلافة الفاطمية لتشمل مصر، والجزيرة، واليمن فقط.

لم يدُم حكم (المسـتعلي) لمصر لأكثر من ست سنوات؛ فقد تُوفِّي سنة ١١٠١ م / ٤٩٥ هـ، وخلفه ابنه (الآمر بأحكام الله) على الحُكم.

◆ **الخليفة الآمر بأحكام اللّٰه الفاطمي:**

تولَّى (الآمر بأحكام الله) حُكم الفاطميين سنة ١١٠١ م بعد وفاة أبيه (المسـتعلي). ووقع الخليفة تحت نفوذ الوزير (الأفضل بن بدر الجمالي) الذي سبَق وأن سيطَر على الخليفة (المستعلي).

ولكـن الصراع بينهما وصـل لذروته عندما تنـازل الوزير عن إيمانه بالمذهب الشيعي، ومن ثَمَّ تحدِّيه لشرعية الخليفة، فما كان من الخليفة إلا أن تآمر على قتله، وكان ذلك سـنة ١١٢١ م / ٥١٥ هـ، وعيَّن الخليفة الوزير (مأمون البطائحي) مكانه.

ولكن ما لبث أن ذاقَ المأمون من نفس الكأس، واغتيل سـنة ١١٢٥ م- ٥١٩ هـ، واختلفت الروايات، ولا يعرف على وجه التحديد أو اليقين مَن قتلَه، هل هو الخليفة (الآمر بأحكام الله)؛ بسـبب إسرافه في جمع المـال، أو ابـن الوزير (الأفضل بن بـدر الجمالي)؛ انتقامًا من مشـاركة (المأمون) في قتل أبيه؟

واستكمالًا لسلسلة المؤامرات والاغتيالات التي سادتْ في ذلك العصر، انتهـى الأمر بالخليفة (الآمـر بأحكام الله) أن اغتيل على يد أعدائه من

فرقة الحشَّاشين بينما كان عائدًا يومًا من جزيرة الروضة إلى قصره سنة ١١٣٠ م/ ٥٢٤ هـ، ودخلوا به القصر لكنه مات بعدها بأيام قليلة على إثر الإصابات، وخلفه ابنُ عمه الخليفة الحافظ؛ لأن الخليفة (الآمر) لم يكُن له ولد. ومن أهم أعمال الخليفة (الآمر بأحكام الله) إنشاؤه الجامع الأقمر سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م في شارع المعز الذي تُعدُّ واجهته من أروع الواجهات في فنِّ العمارة الإسلامية.

◆ **الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي:**

تولَّى الخليفة الحافظ لدين الله الحُكم بعد اغتيال ابن عمه الخليفة (الآمر بأحكام الله) سنة ١١٣٠ م، ولكن الوزير (أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي) سيطر على مقاليد الأمور، وحدَّ من سُلطات الخليفة حتى إنه اعتقله، وسجنَه سنة ١١٣٠ م، كما اضطهد (أبو علي بن الأفضل) الشيعةَ في مصر حتى قتله المُتمرِّدون الشيعة، وأطلقوا سراح الخليفة.

لما قُتل (أبو علي بن الأفضل) جعل الخليفة (بهرام الأرمني) وزيرًا على مصر سنة ١١٣٦ م / ٥٣١ هـ، وكان (بهرام) مسيحيًّا كاثوليكيًّا، ولكنه اضطهد المصريين، وانحاز إلى بني جلدته من الأرمن، وكثرت مظالمه، وعاونَه على ذلك ثلاثون ألفًا من الأرمن الذين أخذوا في نهب الأموال والاعتداء على الممتلكات حتى ثار الناس. فأمر الخليفة جيشه بمحاصرة القاهرة، وطرد (بهرام) والأرمن خارجها.

تُوفي الخليفة (الحافظ لدين الله) سنة ١١٥٠ م/ ٥٤٤ هـ، وتولَّى ابنه (الظافر) حُكم مصر.

◆ الخليفة الظافر الفاطمي

أصبحت الخلافة الفاطمية على شفا الهاوية، فالوزراء يُسيطرون على الخلفاء، والخلفاء يُدبِّرون المكائد للوزراء. وما حدَث في عهدي الخليفة (الظافر) و(الفائز) هو مِثال لحجم الكارثة، وبداية انهيار داخلي وخارجي، وبداية نهاية لسقوط دولة ظلَّت تَحكُم نحو نصف العالم الإسلامي قرنين من الزمان.

تولَّى الخليفة (الظافر) سنة ١١٥٠ م/ ٥٤٤ هـ وبدأ عهده بالمكائد؛ فقد أوْعَز إلى صديق له يُدعَى (نصر بن عباس) أن يقتل الوزير (ابن السلار)؛ لأنه سُنِّي مُخالِف لمذهب الفاطميين الشيعي، فقام (نصر) باغتيال (ابن السلار)، ومن ثَمَّ أصبح أبوه (العباس أبو نصر) وزيرًا فاطميًّا، ولكن الخليفة عاد وحرَّض (نصر) على قتل أبيه (العباس)، إلَّا أن (العباس) اكتشف المؤامرة، وأقنع ابنه بقتل الخليفة (الظافر)؛ فقتله سنة ١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ.

خلف (الظافر) ابنه (الفائز)، واستطاع القبض على (نصر) وأبيه (العباس) بعد هروبهما إلى الشام، وصلَبَهما.

وفي عهد الخليفة (الظافر) فقَدَ الفاطميون آخر معاقِلَهم في فلسطين وهي عسقلان عندما سارع (بلدوين الثالث) ملك إمارة بيت المقدس بالزحف على عسقلان ومحاصرتها واقتحامها سنة ١١٥٣ م / ٥٤٨ هـ.

◆ رأس الإمام الحسين

ومــن الروايات التــي اختلَطت عــلى الناس؛ أن الحاميــة الفاطمية بعســقلان نقلت رأس الإمام الحسين (رضي الله عنه) إلى القاهرة عندما علمت بقُــرب اقتحام الصليبيــين للمدينة ســنة ١١٥٣ م، وأن الخليفة (الفائز) أمَرَ بحِفظ رأس الإمام الحســين (رضى الله عنه) في علبة في أحد سراديب قصر الزمرد إلى أن بُنِي مشهد لها؛ وهو مسجد الحسين الآن.

أولًا: اختلَــف العلماء عــلى وجود رأس الحســين (رضي الله عنه) هل هي في عســقلان أو في المدينة أو في القاهرة؟ ذكر عمر بن أبي المعالي أسعد بن عــمار في كتابه (الفاصــل بين الصدق والـمَيْن في مقر رأس الحســين) أن جمعًا من العلماء الثِّقــات؛ كابن أبي الدنيا، وأبي المؤيد الخوارزمي، وأبي الفــرج بن الجوزي أكدوا أن الرأس مقبــور في البقيع بالمدينة، وتابعهم عــلى ذلك القرطبي. وقــال الزرقاني: «قال ابن دحيــة: ولا يصح غيره». وشيخ الإسلام يميل إلى أن الرأس قد بُعث به إلى واليه على المدينة عمرو بن ســعيد، وطلــب منه أن يقبره بجانب أمه فاطمــة (رضي الله عنها)، والذي جعل شيخ الإسلام يرى ذلك هو أن «الذي ذكر أن الرأس نقل إلى المدينة هُم من العلــماء والمؤرخين الذين يعتمد عليهم، مثل: الزبير بن بكار، صاحب كتاب (الأنساب)، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي صاحب (الطبقــات)، ونحوهما من المعروفين بالعلم والثقة والاطِّلاع، وهم أعلم بهذا البــاب، وأصدق فيما ينقلونه؛ وبذلك يكون رأس الحســين مقبورًا

بجانــب أمه فاطمــة (رضي الله عنها) المراجعــة». (مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية ص ٣٠٦ - ٣٢٥).

◆ الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمي

جاء الخليفة (الفائز) إلى الحكم وعمره ســتة أعوام بعد اغتيال أبيه (الظافر)، ولكن نســاء القصر ســارَعْنَ في طلب حضور الأمير (طلائع بن رزيك)، أحد أمراء الدلتا؛ ليتولى الوزارة.

ظل (الفائز) يحكم مصر ســتة أعــوام عن طريق أوصياء العرش، ثم مــرض ومات ســنة ١١٦٠ م/ ٥٥٥ هـ، وخلفه ابن عمــه (العاضد) آخر الخلفاء الفاطميين.

◆ الخليفة العاضد بالله الفاطمي ونهاية الخلافة الفاطمية :

انتقلت الخلافة الفاطمية في مصر إلى الخليفة (العاضد) ســنة ١١٦٠ بعد وفاة الخليفة (الفائز). وكان وزيره في تلك الفترة (طلائع بن رزيك)، الذي نجح في إخماد الفِتن وإنهاء حالة الفوضى التي عاشــتْ فيها البلاد في عهدي الخليفة (الظافر) و(الفائز).

إلا أن المؤامرات ما لبثتْ أن حِيكَت ضد (طلائع بن رزيك)، وشــارك فيها الخليفة الفاطمي نفسه، وانتهت بقتل (طلائع)، وتولَّى الوزارة (أبو شجاع العادل بن طلائع)، إلا أنه لم يمكث أكثر من سنتين، وخلعه (شاور) الذي كان حاكمًا على الصعيد، وتولَّى الوزارة مكانه.

ثم صار الأمر إلى صراع مرير بين (شـاور) و(ضرغام)، أمير فرقة جند مغاربـة، عـلى كرسي الوزارة، حتـى إنهم اسـتعانوا بالصليبيين في بيت المقدس و(نور الدين زنكي) في الشـام ضد بعضهم البعض؛ ليستولوا على وزارة مـصر، فـما كان من (نور الدين محمود زنـكي) إلا أن انتهز هذه الفرصة، وأرسـل إلى مصر جيوشًـا متتالية بقيادة (أسد الدين شيركوه) وابن أخيه (صلاح الدين الأيوبي)؛ ليُسـقط الخلافـة الفاطمية المترنِّحة، ويضم مصر إلى الشام تحت إمرته؛ لقتال الصليبيين.

تمكَّن (أسـد الدين شـيركوه) من صدِّ الصليبيـين الطامعين في مصر، وخلع (شـاور) من وزارة مصر، وتـولَّى الوزارة بنفسـه بمباركة الخليفة الفاطمـي (العاضـد بالله) الذي كان مريضًا ومشرفًـا على الموت. وبعد تعيينه بشـهرين وزيرًا على مصر تُوفِّي (أسد الدين شيركوه)، وخلفه ابن أخيـه (صلاح الدين الأيوبي) عـلى وزارة مصر في ٢٦ مارس عام ١١٦٩م/ ٢٥ جمادي الآخر ٥٦٤ هـ، وكان عمر (صلاح الدين) وقتها واحدًا وثلاثين عامًا.

أرسـل (نور الدين محمود) إلى (صلاح الدين) يأمره أن يحوِّل البلاد إلى المذهب السُّنِّي، والدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة بدلًا من الخليفـة الفاطمي، ولكن (صلاح الدين) طلب الانتظار؛ حتى لا يغضب الشـعب المصري، وأنه سـوف ينتظر حتى موت الخليفة المريض، ولكن (نـور الديـن) رفض التأجيل، وخـشي أن يكون (صـلاح الدين) يُماطل، فهدَّده بأنه سوف يسـير إليه بحملة، وأرسل إمامًا سُنِّيًّا من الموصل إلى مصر في أول جمعة من شـهر محرم سـنة ٥٦٧ هـ، الموافق ١٠ سـبتمبر

١١٧١ م، فاعتلى المنبر في مسجد القاهرة، ودعا إلى الخليفة العباسي بدلًا من الخليفة الفاطمي.

بعد ذلك أمَر (صلاح الدين) بالدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة، وكان في هذا الوقت قد اشتدَّ المرض على الخليفة الفاطمية المنكوب (العاضد)، فلم يعلمه أهله أو أحد في القصر عمَّا يحدث.

وتُوفِّي الخليفة العاضد بعد ذلك بعدة أيام في ١٠ محرم عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م، رحل، ولم يعلم أنه كان آخر الخلفاء الفاطميين، كان (العاضد) الخليفة الفاطمي الرابع عشر وآخر الخلفاء الفاطميين؛ وبذلك انتهت بموته الخلافة الفاطمية في مصر، والتي استمرت نحو ٢٠٠ عام.

كان الحُكم الفاطمي حُكمًا قويًّا حتى وفاة الخليفة (المستنصر بالله)، خامس الخلفاء الفاطميين، سنة ١٠٩٤ م، وبعد ذلك اضطرب الحُكم اضطرابًا شديدًا، وانتقلت السلطة الحقيقية إلى الوزراء، فأصبحوا المسيطرين الحقيقيين على الدولة، وأصبح العصر الثاني الفاطمي بعد وفاة (المستنصر) الحكم فيه للوزراء، وكثرت فيها الفتن والمؤامرات على الخلفاء من الوزراء ومن الوزراء على الخلفاء، وانتشر القتل والعَزْل، وكان العدو على الأبواب، وكان من في الداخل لا يسمع أو يشاهد غير الكرسي والحكم؛ وبذلك كانت النهاية، وانطفأ نجم الدولة الفاطمية، وأضاء نجم الدولة الأيوبية.

علَّمتني الحياة أن أَحْيا على ضوء شمعة بضمير أشرف من أن أَحْيا بلا ضمير تحت أضواء قصر.

◆ ماذا يريد الإنسان من هذه الدنيا؟

سؤال صعب، والجواب عنه أصعب منه، هل جلست في يوم لكي تسأل نفسك هذا السؤال؟ ماذا تريد من حياتك؟ ولكي يصبح السؤال أصعب: هل أنت سعيد في حياتك؟ وهل أنت راضٍ بما أنت عليه؟ لا أعرف عدد الجلسات التي جلستها مع نفسي ومَن مِنَّا لم يفعل هذا عندما تمر الذِّكريات وشريط الحياة أمام عينيك تجد أهوالًا من الكوارث التي فعلتها والقرارات التي قد اتخذتها، وتتمنى لو يعود بكَ الزمن حتى تستطيع أن تُغيِّرها، تريد أن تعود إلى الماضي لكي تسحب الثقة من بعض البشر الذين أعطيتهم الأمان والحُب والثقة، وقد خانه كل هذا، تريد أن تعود حتى تُغير أصدقاء أعطيتهم الكثير والكثير ثم تُحالفه ضدك مع أشد أعدائك، تريد أن تعود لكي تُغيِّر قرارات كانت في وقتها مجرد قرارات، ولكنك اكتشفت بعد ذلك أنها كانت قرارات مَصيريَّة، وإذا لم تتخذها بهذا الشكل لتغير شكل حياتك تريد أن تعود لكي تمنع نفسك من معرفة شخص سوف يقلب لك كلَّ حياتك، ولكن بعد كل ذلك لم تُجب عن السؤال: ماذا تريد من حياتك؟ اعلم أن ما وصلت إليه لم تكُن لتصل إليه إلا بمراد الله (سبحانه)، ثم جهدك وتعبك، واعلم أن لا أحد يصل إلى نهاية السَّفر والرحلة دون وجهة وهدفك في الحياة هو وجهتك؛ فأحسِن الاختيار حتى تصل إلى الهدف.

مجاعة الصين الكبرى التي استمرت ثلاث سنوات.

الكارثة: المجاعة الكبرى.
التاريخ: ١٩٥٨م الى١٩٦١م.
النتائج المترتبة: ٣٠ إلى ٤٠ مليون حالة وفاة.
المدة: ثلاث سنوات.

◆ ثلاث سنوات من الكوارث

امتدتْ في السنوات ما بين ١٩٥٨ و١٩٦١ المجاعة الشاملة؛ حيث أسهم الرئيس وسياسات الحزب الشيوعي في المجاعة، وأحلام القفزة الكبرى، وتحويل الصين من دولة زراعية إلى دولة صناعية، وعدم التخطيط من الحكومة، كانت سببًا في أكبر كارثة لأكبر مجاعات العصر الحديث وَفقًا لإحصائيات الحكومة كان هناك ١٥ مليون حالة وفاة في تلك الفترة، ولكن قدَّر الباحثون عدد ضحايا المجاعة ما بين ٣٠ إلى ٤٠ مليون حالة وفاة، ما بين عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٢، ولكن البداية كانت قبل ذلك عندما احتلَّ الجيش الأحمر العاصمة بكين، ثم صعود الحزب الشيوعي إلى السلطة بقيادة (ماوتسي تونغ)، وبدأ في تقسيم الأراضي على الفلاحين؛ مما أغضب أصحاب الأراضي، وأحدث الفوضى في البلاد، وتدخَّل الجيش، وأُعدِم مليون شخص؛ مما أخرس المعارضين لـ(ماوتسي)، وبعد ذلك ذهب (ماوتسي) إلى رأس الشيوعية (جوزيف ستاليني).

ورغــم المعاملة الســيئة التي تعامل بها (ماوتسي) هنــاك؛ فإنه بعد أن عادَ إلى الصين كان يُريدها روســيا أخرى، وقد جرى الاتفاق مع الحزب الشــيوعي الروسي أن يُرســل معدات وآلات زراعيــة وصناعية؛ وبذلك تضاعفت الديون على الصين، وبدأت فكرة المزارع المُجمعة مثل الحزب الشــيوعي في روســيا، وبدأ الحزب الشــيوعي الصيني في تجميع الأرض مرة أخرى من الفلاحين؛ مما أثار غضبَهم وحفيظتهم على الحزب، ومثل أي حاكم ديكتاتور فكَّر (ماو) في فكرة حملة المئة وردة؛ وهي الســماح للمعارضــة بأن تقول ما تريد ضد الشــيوعية، وبــدأ المعارضون يأكلون الطُّعم، فخرجوا عن الصمت، وبدأت المعارضة انتقاد (ماو) نفسه، وهنا انقــضَّ عليهم الذئب العجوز، وقال: إنهم أعداء الوطن، وليســوا أعداء (ماوتسي)، وبدأ الجيش في اعتقالهم. ويقال: إن ٧٠٪ منهم لم يرجعوا إلى بيوتهم مرة أخرى، وبشــهادة الناجين أنهم كانوا يموتون داخل المعتقل، ويُدفنون في الصحراء.

بعــد ذلك كان هنــاك موعد آخر مع القدَر، مــات الحليف الروسي (اســتاليني)، مــات أكــبر ديكتاتــور شــيوعي في هــذا الوقــت، وجاء (خروتشوف)، وتميز حُكمه بالمُعاداة الشديدة للستالينية؛ وبذلك أُلغِيت كل قرارات (ســتاليني) وأُلغيت فكرة الأراضي المُجمَّعة، وأرسى الدعائم الأولى لسياسة الأراضي في روسيا.

ونصَح الرئيس الروسي (خروتشوف) الرئيس الصيني (ماو) بأن يتراجع عن هذه الفكرة، ولكن (ماو) لم يستمع إليه، وهنا تبدَّل الود والصداقة،

وأصبح هناك عَداء صريح وتحدٍّ بينهما، ثم أصدر الرئيس الروسي قرارًا برجوع المستشارين الروس من الصين، ولكن (ماوتسي) أصرَّ على فكرة القفزة الكبرى، وبدأ جنون العظمة يجتاح (ماوتسي)، يريد أن يَصنع الفولاذ بكميات كبيرة، وكذلك القمح لتصدير جعل العُمَّال والفلاحين تعمل من بَعد الفجر حتى دخول الليل، وجعل الطعام في مجمعات، وسحب الأواني من البيوت حتى لا يُطبَخ في البيوت، ووضع الأطفال في تجمعات حكومية، وخرج الأب والأم إلى العمل، وبدأت الأصوات تعلو عن نقص الغذاء بعد أن سحَب الفلاحين من الأرض إلى العمل في مصانع الفولاذ، وإنشاء الطُّرق والسكة الحديد، وأصبح الحزب نفسه يُعارِض فكرة القفزة الكبرى، ولكن لم يسمع (ماو) إلى أحد.

وبدأ الناس في اصطياد عصافير الدوري من الأراضي؛ لتوفير الطعام؛ مما جعل انتشار الحشرات الضارة في المزارع تنتشر، وانتشر معها البعوض والأمراض، واختلَّت الطبيعة، وكان لا بد لها من ردٍّ هي الأخرى، وبدأت الديون تزداد وتتضاعف أكثر وأكثر على الدولة، والناس تتساقط و(ماو تسي) لا يريد أن يتراجع عن فكرة القفزة الكبرى، وزاد القحط، واشتدَّت المجاعة، وأصبح الموتى ملايين، وما زال (ماو تسي) يغُض الطرف، ولا يريد أن يتنازل، وبدأ يصل إلى مسامع العالم أن الصين بها مجاعة.

بدأ المراسلون الأجانب والصحف في التوافد على العاصمة بكين، وخرج عليهم (ماوتسي ينغ) يؤكد أن الصين ليس بها أي مجاعة، وكان يستقبل المراسلين أحسن استقبال، فيرجع المراسلون والوفود إلى بلدهم

ومانشتات صُحفهم وإذاعاتهم تقول: إن الصين ليس بها مجاعة. وفي عام ١٩٥٩ كانت المجاعة قد وصلت إلى الذروة، وما زال لا يريد أن يتراجع، ولكن نائب الحزب الشيوعي والحزب شرَعا في الضغط عليه حتى توقف عن فكرة القفزة الكبرى بعد أن تكبَّد الشعب الصيني خسارة أكثر من ٤٠ مليون حالة وفاة، ثم اعتقل نائب الحزب بعد ذلك، وجعل الناس تتظاهر ضده، ثم مات الرجل في السجن؛ لأنه قال له: أنت وأنا والحزب السبب في المجاعة، وما زال في الصين مَن عاش هذه المجاعة، وشاهد أهله وأحبته ماتوا أمام عينيه، ليس في حادث أو مرض، ولكن من الجوع! ماتوا من الجوع؛ لأجل حلم شخص مجنون بجنون العظَمة، ومعه ضعاف النفوس، إنه الجَشَع، وحُب النفس، وعدم الاعتراف بأنك على خطأ، ومرَّت الأعوام الثلاثة، ورجعت الأمور إلى التحسن رويدًا رويدًا حتى عام ١٩٦٢، انتهت المجاعة من الصين، ولكن ستظل صفحة في التاريخ، ولن تمحو سجلاتها أسماء مَن تسبَّب فيها، ورغم ذلك بعد أن عرف العالم كله الحقيقة وما حدث في هذا الوقت؛ فإن كثيرًا من الشعب الصيني ما زال يعشق (ماو تسى ينغ)، وكانت جنازته في سبتمبر ١٩٧٦ من أكبر الجنازات التي قامت في الصين حتى بعد سقوط الشيوعية في العالم والجيش الأحمر، وفشلهم المروع، فما زال هناك ناسٌ تنادي بالشيوعية حتى يومنا هذا!

علَّمتني الحياة أن أصبر على تقلُّباتها؛ فإن وراء كل حزن فرحًا، ووراء كل باب مغلق أملًا يضيء ظلمات الطريق.

تعلَّمت أن كل يوم أعيشــه هو هِبة وعَطيَّة من ربِّ العالمين، ويجب أن أســتغلها، وتعلمــت أن الحياة هي رحلة قصيرة جــدًّا؛ فلا يجب أن أحمــل همَّها. علمتني الحياة أن الحزن يرحل، والفرح يرحل، وما بينهما هو ما أعيشه.

◆ الشيخ كشك والراهب متى المسكين:

رجل على عقيدتي والآخر على عكسي؛ الأول فارس المنابر وقامة كبيرة جــدًّا، وأنا أصغر من أن أتحدث عنه، والآخر أيضًا قامة كبيرة وأنا أصغر مــن أن أتكلم عنه، ولكن مــا جعلني أذكرهما هو عندمــا أقرأ لهما أو أســمعهما أجد أن كليهما طيب القلب، وأشــعر بصِدق عندما يتحدث أحدهما؛ الراهب متى المســكين أختلفُ معه، نعم، في العقيدة، ولكنني أُصدِّق بأنــه رجل طيب مُتواضع، قد تعلَّمت منه ومن الشــيخ الجليل الإخلاص لِما أؤمن به، تحية إليهم وإلى طيبة القلب.

مجاعة البطاطس

الكارثة: مجاعة أيرلندا أو (مجاعة البطاطس)
التاريخ: ١٨٤٥ م إلى ١٨٥٢.
المكان: أيرلندا.

◆ النتائج المترتبة على المجاعة: مليون ونصف حالة وفاة.

لم تكُن أيرلندا البلد الوحيد الذي عانى المجاعة؛ فقد اجتاحت المجاعات العالم، ولكن مجاعة البطاطس كانت مُفجِعة؛ حيث مات أكثر من مليون ونصف إنسان، وهاجر مثلُهم إلى بريطانيا والولايات المتحدة؛ بحثًا عن لقمة العيش.

في بداية القرن التاسع عشر قد سيطرت بريطانيا على قسم كبير من الأراضي بما فيها أيرلندا، وأصبح كبار ملاك الأراضي الزراعية من الإنجليز، وكان الرجل الإنجليزي يستأجر الأرض للعائلات الأيرلندية، ويطلب إيجارًا عاليًا، وعندما يعمل المواطن الأيرلندي في أرض الرجل الإنجليزي، يدفع أجرًا منخفضًا، وهي عادة الإنجليزي على مرِّ العصور، إذا نظرت إلى كل دولة احتلتها بريطانيا تجدهم قد عاشوا على امتصاص دماء أصحاب هذه البلاد، وتحويل مدخرات الشعوب إلى بلدهم بريطانيا؛ المملكة التي كانوا يُلقِّبونها بـ(الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس)، ولكنها غابتْ في ليلة بلا قمر، وأصبحت الآن تابعًا، وهي مِن حِكمة الله

على الناس أن الأيام تُتداول فيما بينهم، فتأمل معي لو أن شخصًا ما ظل قويًّا، ولا يشـيخ، وظل محتفظًا بقوته، وكل يـوم يزداد قوةً على عكس الإنسـان الذي كل يوم يكبر يزداد ضعفًا، تخيَّل معي ماذا هو فاعل بكل هذه القوة التي تزيد؟ والمثال في ذلك قارون، وما فعل عندما اغترَّ بقوته ومالِه؛ من أجل ذلك جعل الله الأيام تتداول، فلا يُوجَد شيء ثابت، الكل قابل للتغيير فيما عدى الثوابت التي لا تقبل التغيير.

كان الشعب الأيرلندي يعيش حالة فقر شديدة، لا يملك شراء اللحم أو حتى الألبان، واعتمد على زراعة البطاطس، وأصبحت الأكلة التي يعتمد عليها العامة من الناس، كانت البطاطس بالنسبة للشعب الأيرلندي هي الأرخص، والمحصـول الأوفر في الزراعة، والأغنى بالمواد الغذائية، اعتمد الشـعب على محصول البطاطس لطعام المـواشي وحيوانات المزرعة مع قليل مـن المحاصيل الأخرى، زرعت ثلـث الأراضي بمحصول البطاطس، وأصبح الشعب يعتمد على هذا المحصول، وكان كثير من البيوتات تعتمد على البطاطس بوصفها طعامًا كاملًا، إنها بداية مأساة؛ ماذا يفعل هؤلاء الناس لو أخفق محصول البطاطس؟ ماذا يحدث؟ النتيجة معروفة، دولة بأكملها تجوع.

◆ **إخفاق المحصول:**

إخفـاق محصـول البطاطـس الأول كان عـام ١٨٤٥، وكان يحدث إخفـاق بين الحـين والآخر، لكن كانت تأتي المسـاعدات وتصلح الوضع،

ولكــن هذه المــرة أصبح الوضع خطــيرًا؛ أصاب المحصــول الفِطْر؛ وهو عفونــة البطاطس، أو الآفة التي تُصيب المحصول، انتشر هذا الفِطر من حقل إلى آخر، وكانت الحقول مزروعة من نوع واحد، ومن نفس درنات الزراعــة، تَعفَّن المحصول في الأرض، أمــا الذي في المخازن فكانت تذوب من فِعل الآفة، وضربــت الأمة كلها، حاولت الحكومة أن تُقلِّل من هذا الإخفاق بمساعدة العاطلين وتقديم الطعام المُتاح؛ وهو قليل، مات كثيرٌ مــن الناس؛ لقلة الطعــام والعلاج، وبدأ أصحاب المزارع المســتأجرة في طرد العمال والمســتأجرين؛ لعدم دفعهم الإيجار، وفي العام التالي أخفق المحصول مــرة أخرى، وطــرد آلاف المزارعين؛ لأنهم لم يســتطيعوا دفع الإيجار، وبدأت أموال الحكومة المُخصَّصة للإغاثة تنفَد، وانقطع الطعام المجاني من الحكومة حتى تصل الأحداث والمنحنى إلى الذروة.

◆ **الهجرة الجماعية:**

أصبــح العيشُ في أيرلندا مســتحيلًا، الموت في طــول البلاد وعَرضها، أصبح الوضع مأســاة، كانت الهجرة مــن أيرلندا إلى الولاية المتحدة هي الحل لكثــير منهم، كانت الهجرة إلى الولاية المتحــدة موجودة من قَبْل المجاعــة، ولكن كانت بأعداد قليلة، ولكنها تضاعفت بعد المجاعة، ولكي تعرف حجم المأســاة؛ فقد مات أعداد كبيرة من الناس، وألقيت جثثهم في البحــر، مات الكثير من الناس الهزيلة التــي أضعفها الجوع والمرض، ولم تتحمَّل الرحلة في البحر، وكانت الســفن التي تأتي من أيرلندا تُسمى

(التوابيت)؛ لكثرة الموتى فيها، وضرب التيفوس، والإسقربوط، والكوليرا البلاد.

◆ **الخروج من الأزمة:**

بعد كل ذلك نجَح المحصول، وبدأ المزارعون في الزراعة من جديد، وأَسقطَت الحكومة أيَّ ديون كانت على الفلاحين في أثناء المجاعة، وبدأ المحصول في التعافي من جديد، وهكذا خرجت أيرلندا من مجاعة البطاطس وهذه الكارثة، وتصبح صفحة من صفحات التاريخ التي لا تُمحَى من سجلات التاريخ.

◆ **الرِّضا بقضاء الله:**

إن كنتَ لا تملك وسيلة نَقْل، فغيرك مبتور القدمين، وإن فقدتَ ولدًا فغيرك فقَدَ عددًا من الأولاد في حادث واحد.

من أصول الإيمان أن يؤمن الإنسان بالقدَر خيرِه وشرِّه، وأن يعلم أن ما أصابه لم يمكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكُن ليُصيبه، وأن الأمر كله يرجع إلى الله (عز وجل)، وأن لله الحكمة البالغة فيما أصاب العبد من خير أو شر، والمصائب على نوعين: النوع الأول: أن تكون تكفيرًا لسيئات كما في قوله (تبارك وتعالى): ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)﴾ (سورة الشورى، الآية: ٣٠).

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾ (سورة الروم، الآية: ٤١).

والنوع الثاني أن تكون المصائب ليست عقوبة لسيئات وقعتْ من الشخص، ولكن لزيادة رفعة في درجاته، وليحصل على وصف الصبر والصابرين الذي أثنى الله على القائمين به، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾ (سورة الزمر، جزء من الآية: ١٠).

يجب على الإنسان أن يَعلم أن هذه الحياة هي مجرد صفحة، وسوف تنتهي في يوم من الأيام سواء طال هذا اليوم أو قصر، وأن مهما حدَث له فيها من كرب أو مِحَن سوف تنتهي، فلا تسخط لو أصابك كربٌ؛ فغيرك أصابه المرض والفقر والجوع، فواللهِ لقد رأينا في صفحات التاريخ أهوالًا من المِحن والمصائب، ومع ذلك انتهت وأصبحت ذكرى على الورق، ومات أصحابها، تاركينَ لنا العِبرة من قصص حياتهم، فلا تحزن على ما فات، ولكن اعملْ على أن تُصلح القادم. وإلى صفحة أخرى من سجلات التاريخ التي لا تُمحَى.

صنع يد الإنسان.
مجاعة من مجاعة الثلاثينيات.

التاريخ: ١٩٣١م إلى ١٩٣٣م.
النتائج المترتبة على الكارثة: ثلاثة ملايين حالة وفاة.
المكان: أوكرانيا.

◆ صنع يد الإنسان:

قتلَت المجاعة في أوكرانيا أكثر من ثلاثة ملايين إنسان، ولم تكُن أوكرانيا هي المجاعة الوحيدة في الاتحاد السوفيتي في هذا الوقت، كانت تُوجَد مجاعات في كازخستان ومناطق الفولغا وسيبيريا الغربية، أودتْ بحياة ثلاثة ملايين آخرين، ويرجع سبب الكارثة إلى نظام (ستالين) الذي اتبعه مع الفلاحين، ونظام تجميع الأراضي والماشية؛ وهو نفس النظام الذي كان سببًا من الأسباب في مجاعة الصين، واعترض الفلاحون في أوكرانيا على هذا النظام، وبدأت تظاهرات الفلاحين ضد هذه الفكرة، وتركَ المزارعون أراضيهم، ورفضوا الزراعة؛ ممَّا جعل الحزب الشيوعي الروسي يفرض غرامات كبيرة على الفلاحين الذين تركوا أراضيهم؛ مما أجبر الفلاحين على العمل من جديد، ولكن بتراخٍ؛ أي: ترك الماشية دون اهتمام، وترك الاهتمام بمقاومات الزراعة، وإهمال الجرارات والآلات الزراعية على أمل أن يسقط هذا النظام قريبًا، وكان التجمُّع القصري

حرب لا هــوادة فيها على نظام إنتاج على قرى ريفية قد وصَفها النظام الشــيوعي من قبلُ بالجهل والتخلُّف، وتحت مراقبة شديدة من الحزب الشيوعي، وأدى تجميع الماشية التي كان يملكها الفلاحون، وهي بقرة أو اثنتان، كانــت مصدر البروتينات في الغذاء الريفي، وأدى ذلك إلى تردِّي التغذية وضَعْف الفلاحين والعمال، إنها مأساة كل عصر، جَشع الإنسان، وطمع الحزب الشــيوعي، إنها الأفكار الشــيوعية التي ضربت العالم في هذا الوقت؛ (ماركس) و(لينين) و(ســتالين)، أســماء في كتاب الشيوعية التــي وَعَدَت العالم بجنَّتِها على الأرض عندما كان يتحدث أحدٌ منهم إلى العالم كان يقول: «ســوف نجعل العالم ينعم في جنة الشــيوعية». ولكن تحــوَّل العالم إلى جحيم في أحضان الماركســية، وضربت المجاعات العالم دون كوارث طبيعية، ولكن بسبب الأفكار الشيوعية التي سمَّمت العالم كله بهذه الشعارات الكاذبة.

إذا تأملت العالم ســوف تجد أن الشــيوعية ضربت الصين في مقتل، وروســيا انهــارت، وعانت مصر في خمســينيات القرن؛ بســبب الأفكار الشيوعية.

فشــلت الشــيوعية في كل الأماكن التي دخلتهــا، وأينما نزلت حلَّت اللعنــة؛ ولذلــك قد طالب الشــعب الأوكراني العالم بــأن يعترف بأن ما حدث في أوكرانيا كان في المرتبة الأولى اســتخدام (ســتالين) المجاعة أداة سياسية ضد شعب معارِض، وارتكاب جريمة ضد شعب معارض لسياسة الحزب الشــيوعي، وفي منتصف التســعينيات فُحصت مرسلات الحزب

الشـيوعي ومرسلات (ستالين)، وقرارات الحزب الشيوعي، وكيف قادت القـرارات إلى المجاعة، ثم إلى تفاقُمهـا عمدًا من بداية خريف ١٩٣٢ في أوكرانيا والكوبان بشمال القوقاز.

تشهد التقارير التي كتَبها المسئولون وأبلغوها إلى موسكو وقياداتها، وعلى رأسها (ستالين)، على تفاقم (مشكلة الغذاء) بكازاخستان وأوكرانيا والكوبان، ومناطق الفولغا وسـيبيريا الغربية؛ حيث قضى في كازاخستان أكثر من مليون شـخص حتفهم ضحايا الشيوعية والانعطاف الستاليني في ١٩٣١- ١٩٣٣.

وكانت المجاعة في كازاخسـتان هي نتيجة سياسـة تجميع الماشـية التي جعلت مربي الماشـية تتعمـد ذبحها احتجاجًا عـلى مُصادرتها من قِبَل الحكومة، وهربوا إلى سـيبيريا؛ خوفًا مـن خطط التوطين والانتقام الستالينى، وبعضهم اجتاز الحدود إلى الصين. وانتشرت الأوبئة والأمراض في البلد، وأقر (سـتالين)، التعليل الأمني، وأمر الطاغية بالتصدي للهرب بالقوة، وتجريم الهاربين وسـجنهم، وحظر بيع المزارعين أي تذاكر سفر، فقضى الآلاف من الأوكرانيين جوعًا؛ بسـبب الجشع والجنون الستاليني؛ هـذا الرجل الطاغية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وهذه صفحة من صفحات جنة الشـيوعية التي وَعَد بها الشـيوعيون العالمَ. وإلى صفحة أخرى من سجلات التاريخ.

◆ **الحياة والموت:**

هــما طريقــانِ مختلفانِ، وعلى عكــس الوتيرة إذا فكــرتَ في الحياة ومُتعها فقــد تنسى الموت، وإذا تذكرتَ الموت تنــسى الحياة، ماذا أنت فاعــل؟ الوســطيَّة هي أفضل الأمــور، عِشْ حياتك كأنــك تعيش للأبد، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، وتذكَّر عندما تُقبل عليك الدُّنيا ألَّا شيء يدوم، فلا تغترَّ منصبك أو سُلطانك، فكم من سُلطان نام واستيقظ وهو صعلوك، بعد أن نزع الله منه سلطانه، ولا تظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإذا غرَّك سُــلطانك فتذكَّر قدرة الله عليك، وإذا أصابتك نعمة مــن الله وفضله؛ فتذكر فضل الله عليك، واعلم أن ما بين الميلاد والموت هي صفحتك؛ فاحرص كل الحرص على ما تكتب فيها.

لقــد جعل الله لــكل داء دواءً، ولكن هناك أمــراض وأوبئة تأتي من الحــين إلى الحين، يعجــز عندها الطب والعلاج، ويقف الإنســان عاجزًا أمامها، ثــم يُنزِل الله رحمتَه وفضله على عبــادِه، وهذه بعض الأوبئة التي عجَز في وقتها الإنسان أمامها.

◆ **الإنفلونزا الوبائية والحرب العالمية الأولى:**

قد وُصِف هذا المرض بأكبر كارثة في التاريخ الطبي.

النتائج المترتبة: وفاة أكثر من خمسين مليونًا حول العالم.

وباء صُنِّف بأنه الأسوأ في التاريخ الطبي، وقد ظهر المرض في الحرب العالمية الأولى، وكان نوعًا جديدًا من الإنفلونزا، ولقد جلســت مع أطباء

أصدقـائي حتى أعرف طبيعة هـذا المرض، وأقصد الطبيعـة العِلمية في هذا الوقت، وليست التاريخية، ففهمت أنَّ المرض عكس أنواع الإنفلونزا الأخـرى؛ لأن له مضاعفات مميتة فيمَن هم أعمارهم أقل من ٤٥ عامًا، وأن السبب الرئيس في عدم إصابة كبار السن في عام ١٩١٨ هو تعرُّضهم لإنفلونزا ١٨٨٩ م الروسية؛ مما أكسبهم مناعة جزئية ضد الفيروس.

ظهرت سُلالة جديدة من فيروس الإنفلونزا سنة ١٩١٨، وظهرت أول حالة في الولايات المتحدة الأمريكية، وانتشر هذا المرض، فكان واحدًا من كل أربعة أمريكيين مُصاب بفـيروس الإنفلونزا. انتشر المرض بسرعة إلى كنـدا وأوروبا؛ ليمتد في النهاية إلى جميع أنحاء العالم؛ وذلك لأن الناس ضعفوا ونَفِد كل ما لديهم من قوة في مجاعات الحرب العالمية.

لم يُعرف العـدد الدقيق للوفيات، ولكنه يُقـدَّر بنحو ٥٠ مليونًا إلى ١٠٠ مليون شخص لقوا حتفَهم على مستوى العالم، الغالبية العظمى من ضحايا هذا الوباء كانوا من البالغينَ واليافعين الأصِحَّاء بعكس ما يحصل عادةً من أن يستهدف الوباء كبار السن والأطفال والأشخاص المرضى أو ضعيفي المناعة.

ورغم أنَّ الحرب العالمية الأولى لم تكُن السبب الرئيس في انتشار الوباء إلا أن بعض المصـادر تقول: إن تكدس الوحدات العسـكرية وتحركات المشـاة كان سببًا في الانتشار العضوي، ونقلها إلى السكان؛ وبذلك كانت الإنفلونزا الوبائية وباءً ضرَب العالم، وتسبب في مقتل أكثر من ٥٠ مليون

إنســان حول العالم مســجلًا رقمًا من أكبر الأرقام في عدد الضحايا، حتى دخل صفحات التاريخ.

«إننا نبحث عن الســعادة غالبًا وهي قريـبة منَّا، كما نبحث في كثير من الأحيان عن النظَّارة وهي فوق عيوننا» (تولستوي).

٢

صفحة أخرى من سجلات التاريخ، ولكنها صفحة من العصور القديمة، تحديدًا القرن الرابع عشر.

الحدث: كارثة تغير مجرى أوروبا.

الكارثة: الموت الأسود أو الطاعون.

المكان: أوروبا.

التاريخ: ١٣٤٧م إلى ١٣٥٢م.

النتائج المترتبة: موت ثُلث سكان أوروبا.

مدة الكارثة: ما بين ٤ إلى ٥ سنوات.

سنة ١٣٤٧م حدث غيَّر مَجرى أوروبا

الموت الأسود

بــين عــام ١٣٤٧ و١٣٥٢، وتســبب في مــوت ثلث ســكان أوروبا، وتكدَّســت الجثث، واجتاح الشرق الأدنى وآسيا وانتشرت أوبئة مُشابهة في نفس الوقت الشرق الأوســط ومصر وفلســطين، وقد سبَّب الطاعون خــلال التاريخ ثلاثة أوبئة كبــيرة، وقَع أولها عــام ١٥٤١ للميلاد، ودامَ

أكـثر من قرنـين، وبلغ عدد الموتى ٤٠ مليونًـا، وينتقل المرض عن طريق القـوارض البرِّيَّة، ومنها الفـئران؛ حيث تقوم البراغيـث بنقل الجراثيم للإنسـان، وبنقل المرض من فأر إلى آخر، وتسـتطيع القوارض أن تعيش وهي حاملة الجراثيم في دمها، ثم تغادر جثث الفئران الميتة، وتبحث عن جسم مضيف آخر، وتنتقل إلى الإنسان.

وكان الموت الأسـود من أخطر الأمراض في هذا الوقت، وكان ضيفَ شرف مع المجاعات التي حدثت. ضرب المرض أوروبا أكثر من ٤ سنوات، وضرب في نفس الوقت مناطق أخرى من العالم، وكان ينتشر عبر الفئران في السـفن والمراكب القادمة مـن أوروبا إلى مناطق خارجها حتى ضرب العالم كله، ويقـال: إن مرض الطاعون حصد أرواح أكثر من ١٠٠ مليون نسمة في العالم، رقم مهول، تخيَّل مرضًا واحدًا فقط ينتج عنه هذا الرقم!

وكانـت الحكومات عاجزة أن تفعل شـيئًا؛ فلا أحـد يعرف من أين يأتي المرض أو من أين يبدأ العلاج! ولم يفكر أحد في أن الفئران سبب في نقل المرض، واجتاحت المجاعـات العالم، وكانت هذه الفترة من أصعب الفترات في العالم، وخاصةً على أوروبا... وبعد هذه الغُمة خرجت أوروبا من عصر الظلام إلى عصر النور، وخرجت من سيطرة الكنيسة وقتها على العلماء. ويظل الموت الأسود صفحة من سجلات التاريخ التي لا تُمحَى.

الباب الثاني

شخصيات شِرِّيرة
وكوارث من صُنع الإنسان

الفصل الأول

- حرب الثلاثين.
- محاكم التفتيش.
- هيروشيما.
- حريق لندن.
- الرحلة (٤٠١).

تعلَّمتُ من الحياة أنك تحتاج إلى وقت لكي تتخذ قرارًا خاطئًا لتعرف مَن الذي سوف يصلحه.

صفحة أخرى من صفحات التاريخ.

هذه الصفحة الكارثية هي من صُنع الإنسان، ولم تدخل الطبيعة طرفًا في هذه الكارثة.

١

حرب الثلاثين عامًا.

المكان: أوروبا الوسطى- ألمانيا.

الكارثة: حرب الثلاثين عامًا.

التاريخ: ١٦١٨ م إلى ١٦٤٨م.

النتائج المترتبة عليها: وفاة ثلاثين في المئة من سكان ألمانيا.

حرب الثلاثين عامًا هي حرب قامت في الأصل على أساس ديني بين البروتستانت والكاثوليك، ثم تدخَّلت معظم القوى الأوروبية الموجودة في ذلك الوقت بهدف السيطرة على أوروبا. فرنسا الكاثوليك ساندت الجانب البروتستانتي؛ بسبب التنافس على الحكم مع (الهابسبورج)، وكانت حرب الثلاثين عامًا من أشرس الحروب على صفحات التاريخ؛ لقد خلَّفت دمار ألمانيا، وتركت أوبئة ومجاعة ونتائج مدمرة، ظلت الحرب ثلاثين عامًا متواصِلة، وظلَّ الصراع قائمًا أكثر من ثلاث مئة عام، هجر الناس المدن والقرى، وتُركت آلاف الأفدنة دون زراعة؛ بسبب نقص الأيدي العاملة، وموت الدواب، واستخدمت المحاصيل كلها لإطعام

الجيــوش، وأصبحــت المدن الكــبرى خَرِبة، وتدهــورت الصناعة؛ لعدم وجود الحرفيين والمنتجين، وأصبح أغنياء التجار يسرقون من أجل العيش، وأصبحــت الدولة لا تســتطيع أن تحصُل على الضرائــب لإفلاس التجار، وتدهور الحال، وبدأ الوباء ينتشر؛ بســبب الجثث المتعفِّنة في الشوارع، وبســبب فضلات القمامة والنفايات المُلقاة في الشوارع، وانتشر التيفود، وضرب الطاعون مدينة ميونخ، وأصبح العنف وسوء الأخلاق بين الناس هو الســائد، وكثرت الجريمة، واختفت الفنون والآداب، وقطعت الطرق ومواصــلات النقل، وكثر قطاع الطرق، وكتب أحــد الفلاحين في مذكراته اليومية: «اللهم إنا نتوسَّــل إليك أن تُعيد لنا الســلام. يا إله الســماوات أنزِلْ علينا السلام».

وطلَــب الوُعَّــاظ من الحكومــة التدخُّل، ووضع حدٍّ لدمار وســفك الدماء، وبــدأ الناس في نبش القبور، وأكل الحيوانــات والخيول النافقة والجرذان، وتســمم الهواء مــن رائحة الموت، ولكــن الحكومات كانت مشــغولة باحتلال الأراضي؛ إنه الجشــع عندما يســيطر على الإنســان، ويظلم أخاه الإنسان.

هبطت حــرب الثلاثين بســكان ألمانيا من عشريــن مليونًا إلى ثلاثة عشر ونصف المليون، ودمرت ١٨٠٠٠ قرية و١٥٠٠ مدينة، استســلمت الدنمــارك ١٩٤٥، وعقدت اتفاقيــة منفردة مع الســويد تدعى اتفاقية (برومســبر)، ومات (كرستيان +ملكة) بعد ثلاث سنوات ١٩٤٨ في حُكم اســتمر على بلاده ٥٩ عامًا، وفي نفس السنة أعلن صلح (واستفليا) منهيًا

حرب الثلاثين عامًا بهزيمة (آل هابسبورج)، وانتصار فرنسا والسويد، وبداية إعادة إعمار ألمانيا من جديد، انتهت الحرب، وظل الصراع ثلاثة قرون أخرى، وتظل حرب الثلاثين عامًا صفحة سوداء في تاريخ أوروبا وحكومتها، ومَن تسبَّب فيها، ولن تُمحَى أسماؤهم من سِجلات التاريخ.

علَّمتني الحياة أن أحيا على ضوء شمعة بضمير أشرف من أن أحيا بلا ضمير تحت أضواء قصر.

ماذا يريد الإنسان من هذه الدنيا؟ سؤال صعب، وجوابه هو أصعب منه. هل جلست في يوم لكي تسأل نفسك هذا السؤال؟ ماذا تريد من حياتك؟ ولكي يصبح السؤال أصعب: هل أنت سعيد في حياتك؟ وهل أنت راضٍ بما أنت عليه؟

لا أعرف عدد الجلسات التي جلستها مع نفسي ومَن مِنَّا لم يفعل هذا عندما تمر الذكريات وشريط الحياة أمام عينك تجد أهوالًا من الكوارث التي فعلتها والقرارات التي قد اتخذتها وتتمنى لو يعود بك الزمن حتى تستطيع أن تُغيِّرها، تريد أن تعود إلى الماضي لكي تسحب الثقة من بعض البشر الذين أعطيتهم الأمان والحب والثقة وقد خانه كل هذا، تريد أن تعود حتى تُغير أصدقاء أعطيتهم الكثير والكثير ثم تحالفه ضدك مع أشد أعدائك، تريد أن تعود لكي تغير قرارات كانت في وقتها مجرد قرارات، ولكنك اكتشفت بعد ذلك أنها كانت قرارات مصيرية، وإذ لم تتخذها بهذا الشكل لتغير شكل حياتك تريد أن تعود لكي تمنع نفسك من معرفة شخص سوف يقلب لك كل حياتك، ولكن بعد كل ذلك لم

تُجب عن السؤال: ماذا تريد من حياتك؟ اعلم أن ما وصلت إليه لم تكُن لتصل إليه إلا بمراد الله (سبحانه)، ثم جهدك وتعبك، واعلم أن لا أحد يصل إلى نهاية السفر والرحلة دون وجهة وهدفك في الحياة هو وجهتك فأحسن الاختيار حتى تصل إلى الهدف. [الفقرة مكررة، ولكن يبدو أنها مقصودة]

٢

حريق لندن الكبير ١٦٦٦

أكبر كوارِث الحرائق في التاريخ أدَّى إلى تدمير العاصمة البريطانية بكاملها، استمرَّ ما بين الثاني من سبتمبر حتى الخامس من سبتمبر ١٦٦٦، وقد نتج عنه تدمير المدينة بكاملها، وتشريد آلاف من الأُسَر، وكان الحطام الناجم عن حريق المدينة يمتد أكثر من كيلو ونصف الكيلو طوليًّا، ووقع الحريق في عهد الملك (شارل الثاني) في منتصف الليل بعد أن نام الفران (جون فيزنور) وقد نسي أن يُطفئ النار في فرنه، اندلعت النار في الفرن، ولم يمر وقت طويل حتى وصلت إلى كومة حبوب من الشوفان كانت في ساحة مجاورة للفرن، ثم إلى بيت مجاور، وأخذت النار تمتد من بيت إلى آخر، وكانت البيوت تُبنى في هذا الوقت من الخشب، ولم يتحرك أحد في بداية الحريق ظنًّا منهم أن النار ستتوقف تلقائيًّا، وكان ذلك بسبب اليد البشرية، امتدت النار إلى نهر التايمز؛ حيث تُوجَد مستودعات الزيت ومستودعات الفحم والخشب، وخرج الأمر عن السيطرة، وبدأ السير (توماس بلودارت)، عمدة لندن وقتها،

والــذي تــردَّد في بداية الأمر في اتخاذ قرار سريــع للموقف، حتى أصدر القــرار بوضع حواجــز نارية عن طريــق التفجيرات لمكافحــة الحريق، وكانــت إحدى وصائل المكافحة للحريق في هذا الوقت، ومن شــأنها أن تحول دون انتشــار الحريــق، ولكن قد قالت الطبيعــة كلمتها، وهبَّت الرياح الجافة، وقامت بتعزيز النيران، واندفعت النيران إلى قلب المدينة، وحطَّمــت في طريقها كاتدرائية القديس بولس؛ حيث فجَّر اللهب البناء المصنوع من الحجر، وذاب ســقف الكاتدرائيــة بالكامل، ووصلت النار إلى قبور القديســين والرهبان الموجودة في الكنيسة، ثم تخطت النار نهر فليت؛ لتُهدِّد بلاط الملك نفسه، ولم يتمكنوا من السيطرة على أكبر حريق في تاريخ لندن إلا بعد خمسة أيام من اندلاع النار في فرن (جون فيزنور) مُســبِّب الحريق، والذي لم يمُت فيه؛ مما جعل الخسائر كبيرة جدًّا؛ فقد دمــر الحريق ثمانــين في المئة من المدينة، ثلاثة عشر ألف بيت وســبعة وثمانين كنيســة، ومتحف (التورهل)، وكانت الخسائر المدية فاضحة، ولم تُســجل الدفاتر الرسمية غير ثماني حالات وفاة في هذا الحريق، والبعض يقول: إن الجثث أصبحت رمادًا بفعل الحريق الهائل.

ويضــاف إلى هذه القائمة مــن الضحايا الســاعاتي الفرنسي (روبرت هوبر) الذي اتُّهم بأنه السبب في الحريق الهائل، وكان أجنبيًّا كاثوليكيًّا، وأُعدِم شــنقًا دون مُحاكمــة، في (تاي برن) يوم الثامــن والعشرين من ســبتمبر ســنة ١٦٦٦، وظهَر بعد إعدامه أنه لم يصِــل إلى لندن إلا بعد يومين من الحريق، وكان من هَوْل الحريق أن الناس أصابهم الهَوْل، فلم

يتحرك لهم ساكنٌ، كان هناك آلاف السُّكان في بداية الحريق، ولم يتحرك أحد لإخـماده، وعندما اشـتدَّ الحريق كان الفرار هـو الحل، وانتشرت الفوضى في كل أرجاء المدينة.

غريب هو الإنسـان، لا يعلم حجم ضعفه، وصغر علمه، وقلة حيلته إلا أمام الطبيعة وتقلُّباتها.

تلـك كانت صفحة من صفحات التاريخ لا تُمحَى، والآن نسـافر مرة أخرى إلى صفحة من سـجلات التاريخ ومحطة أخرى من محطات الزمن الذي جعله الله (سبحانه وتعالى)، لا يتوقف عن تأديب وتعليم الإنسان الذي لم تتعلَّمه في شبابكَ، ستتعلمه من شيخوختك، والماضي هو التجربة التي عاشَـها غيرك، وأصبحت فُرصة وضعَها الله لك حتى تكون لك سندًا لتتعلم دون أن تتألم مثل مَن عاش التجربة وسجلات التاريخ بها قصص وعِـبَر من الصـواب والعِقاب عليك أن تختار مـع أي جهة وصفحة من التاريخ تريد أن تكون وأي نهاية تختار.

٣

المحاكم العسكرية أو محاكم التفتيش

الكاتب الروسي العظيم (فيودور ديستويفسـكي) في الرائعة (الإخوة كارامـازوف)، والتي تخيَّل فيها أحد أبطالها أن السـيد المسـيح عاد إلى الأرض، ونزَل بإشبيلية في عِزِّ سطوة محاكم التفتيش التي سادت الأندلس، ونزل المسـيح في وقت الصلاة والقُداس وقد عرفته الناس، وصرخت: إنه هـو، لا يمكن أن يكون غير ذلك، فوعـظ الناس وصنع المعجزات، وأقبل

عليه الضعفاء والمرضى وأصحاب الحاجات، يسألونه العون، ويقدمون له شكاواهم، ويشاهد ذلك رئيس ديوان التفتيش، فيأمر باعتقال السيد المسيح وإيداعه السجن.

وفي آخر المساء، يذهب رئيس الديوان الطاعن في السن إلى المسيح، ويقول له: «إنني أعرفك، ولا أجهلك؛ ولهذا حبستُك، لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا تعوقنا وتلقي العثرات والعَقبات في طريقنا؟ إنك كلَّفت الناس بما ليس لهم به طاقة، كلَّفتهم حرية الضمير، كلَّفتهم أن يعرفوا الخير والشَّرَّ، كلَّفتهم أصعب المسالك والطُّرق، فلم يطيقوا ما كلفتهم. والآن وقد عرفنا نحن داءهم، وأعفيناهم من ذلك التكليف، فليس أثقل على الإنسان من حمل الحرية، وليس أسعد منه حين يخف عنه حملها، فينقاد طائعًا لمَن يسلبه الحرية ويُوهمه، في الوقت نفسه، بأنه قد أطلقها له، وفوَّض إليه الأمر في اعتقاده وعمله، فلماذا تُكلف الإنسان، من جديد، أن يفتح عينيه، وأن يتطلع إلى المعرفة، وأن يختار لنفسه ما يشاء، وهو لا يعلم ما يشاء؟

إنك مَنحتنا السلطان قديمًا، وليس لك أن تستردَّه، وليس في عزمِنا أن ننزل عنه، وأن ظهورك الآن بهذه الصورة البسيطة ليس في صالح الكنيسة، وكذلك فإن اهتمامك بالإنسان البائس والفقير والأعمى والعريان يتنافى مع ما نفعله اليوم.

يا سيدي، إن الدُّنيا تغيَّرت وأنت الآن تصرف الناس عن العبادة والصلاة، ثم إن تعاليمَك التي ناديتَ بها منذ عدة قرون لم تعُد مناسبة

لنا اليوم، فلم يعُد أحدٌ يُصدِّق عبارتك المشـهورة: بأن «دخول جمَل من ثقـب إبرة أيسر من دخول غني الملكـوت»؛ فالأغنياء هم الذين أقاموا لـك الكنائس، وهم الذين شـيَّدوا الكاتدرائيات، هـذا فضلًا عن أني لا أستطيع أن أمشي عاريًا وحافيًا مثلك.

فدعْ هذا الإنسـان لنا، وارجع من حيث أتيتَ، وإلا أسـلمناك لهذا الإنسـان غدًا، وسلَّطناه عليك، وحاسـبناك بآياتك، وأخذناك بمعجزاتك، ولترين غدًا هذا الشعب الذي قَبَّل قدميك، اليوم، مقبلًا علينا، مبتهلًا لنا أن نُخلِّصه منك، وأن ندينك، كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين.

ويتخيل (ديستويفسـكي) -في نهايـة هذه المواجهة- أنَّ المسـيح لم ينطـق بكلمة، ولم يُقابل هذا الوعيد والتهديد حتى بالتعجُّب، بل تقدَّم إلى رئيـس ديوان التفتيش، ونظر إليـه وقَبَّله، ثم خرج إلى ظلام، وغاب عن الأنظار.

وصفحة أخرى من سجلات التاريخ التي لا تُمحَى.

٤

محاكم التفتيش

التاريخ: القرن الخامس عشر والسادس عشر.

المكان: أوروبا.

ما محاكم التفتيش؟

هي ديوان أو محكمة كاثوليكية نشـطت خاصةً في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم.

استُخدِمَت بشكل عام لمحاكمة المهرطقين بواسطة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وكان ذلك مـن خلال محاكمات إكليريكية أو المحاكم التي كانت تُقيمها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية؛ لقَمْع أو مكافحة الهرطقة، وكانت مهمتها اكتشـاف السـحَرة ومعاقبتهم، ولكن للأسـف اسـتغلَّ ضعفـاء النفوس من الكهنة وأصحاب النفوذ والسـلطة الوضع، وأصبح انتقاميًّا وشخصيًّا؛ حيث أحرقت محاكم التفتيش أكثر من خمسين امرأة بإسـبانيا فـوق الثلاثين بإيطاليا وأربع نسـاء بالبرتغـال، بينما حاكمت محكمـة القضاء المدني الأوروبي ١٠٠ ألف امـرأة، ٥٠ ألفًا منهن حُرِقن، و٢٥ ألفًا بألمانيا خلال القرن السادس عشر بواسطة أتباع (مارتن لوثر).

وكانت سـلطة محاكم التفتيـش على أتباع الكنيسـة من المُعمدين فقط، والذين كانوا يُشكِّلون الغالبية من السكان، ولغير المسيحيين أيضًا أن يُحاكموا بتهمة سـبِّ الدِّين. وكان استخدام وسائل التعذيب في حقِّ مَن كان يُظنُّ أنه من الهراطقة أمرًا مألوفًا كأسـلوب بشِع للعقاب؛ من قطع أوصال، وحَرْق الناس أحيـاءً، فوصلت الأعداد التي عُذِّبت ثلاثمئة ألف من البروتسـتانت، ومئة ألف بلغاري وفرنسي وأرثوذكسي، وكانت محاكم التفتيش الإسبانية هي الأبشَع على الإطلاق.

وبعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس أرسل (نابليون) حملتَه إلى إسـبانيا، وأصدر مرسـومًا سـنة ١٨٠٨ م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسـبانية، ووجد الجيش الفرنسي غرفًا صغيرةً في حجم جسـم الإنسـان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية

واقفًا على رجليه مدة سـجنه حتى يموت، ويبقى سـجين الغرف الأفقية ممـددًا بها حتى الموت، وتبقـى الجثث في السـجن الضيق حتى تبلى، ويتسـاقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، وآلة أخرى للتعذيب على شـكل تابوت أو (تابوت المرأة الجميلة) كما كان يُعرف في وقتها، تُثَبَّت فيه سـكاكين حادَّة؛ كانوا يلقون المعذَّب في هذا التابوت، ثم يُغلق عليه الغطاء بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مزق جسمه، وقطَّعه.

عثروا على آلات كالكلاليب تُغْرز في اللسـان ثم تُشد ليخرج اللسان معهـا ممزقًا قطعـة قطعة، وأخرى تُغرس في أثداء النسـاء، وتُسـحب بعنفٍ حتى تتقطع الأثداء أو تُبتَر، وسـياط من الحديد الشـائك يُضرب بهـا المعذبون وهُم عُراة حتـى تتناثر لحومُهم، هـذا العذاب كان ضد الطوائف المخالفة من المسـيحيين واليهود والمسـلمين الذين رفضوا تَرْك ديانتهم.

تخيَّـل معي حجم هذه المأسـاة الإنسـانية التي اشـترك فيها ملوك ورجال دِين، باعوا دينهم من أجل عرَض الدنيا، وبدخول جيش (نابليون) الأراضي الإسـبانية انتهت هذه الصفحة، وسـتظل شـاهدة في سجلات التاريخ على ظُلم الإنسان وجشعه الذي لا ينتهي. والآن نُسافر إلى سجل آخر من سجلات التاريخ.

لا تُوجَد مهمة صعبة بعدما تقسمها إلى مهمات صغيرة.

◆ **الغيب:**

لأن المستَقبل غيب، والإيمان هو أيضًا غيب، قد شغف الإنسان بكل مـا هو غيب، أعرف كثيرًا من الناس التـي تعوَّدت أن تقرأ باب (حظك اليوم)، وقد تعدَّى الأمر ذلك عند بعضهم، وأصبح يعتقد في هذه الأمور، وانتشرت كُتب الأبراج والحظ، ثم راجتْ بعد ذلك بضاعة كتب الإلحاد، وأصبحـت موضة العـصر الحديث، وأنا أتعجب عندما يسـأل أحدهم السـؤال الخبيـث: أنت تؤمن بالله دون أن تـراه؟ ويكمل ويقول: إذن كيف تسـتنكر علينا أن نقرأ كتب الطالع والغيب لكي نعرف المستقبل؟ فكيف تفعل أنت ما تسـتنكر على غيرك؟ وهنا اعلم أنه مسكين لم يصل بعـد إلى الفَـرْق بين الإيمان بالله العلي القديـر الذي يتجلَّى في كل شيء على الأرض والسماء والبحار وفي باطن الأرض وفي النفس وما حواها، كل ذلك يجعلني أؤمن بالله، أما كتب الطالع والمسـتقبل فكتَبها بشر مِثلي ومِثلك، هو نفسـه لا يعرف ما سـوف يحدُث له بعد لحظات من كتابة حظك، فما الداعي حتى أؤمن أو أعتقد أنا بما يكتُب هو عن مستقبلي؟ هـذا هو الفرق بين الإيمـان الغيبي بالله وبين الإيمـان والاعتقاد بغيب المستقبل.

صفحــة من كوارث الطبيعة، وقد اخترت هذه الصفحة؛ لغرابتها وما حدث فيها.

الرحلة (٤٠١).

هنــاك حــوادث كونية تحدث بســبب الطبيعــة، وبالطبع لا يكون الإنســان طرفًا فيها، وهو فعل لقضاء الله، ولا يســتطيع الإنســان فعل شيء، ولكــن لكل شيء ســبب أو تحليــل علمي؛ حتــى تتعلم البشرية تفادي الخســائر الناتجة عن هذه الكوارث، ولكن ما حدث بعد حدوث كارثــة الرحلة (٤٠١) كان لُغزًا غريبًا ومحــيرًا حتى يومنا هذا، لم يعرف أحد تحليلًا لما حدث؛ لذلك اخترتها صفحة من هذه الصفحات.

الكارثة: الرحلة (٤٠١).

المكان: مدينة نيويورك.

التاريخ: ٢٩ ديسمبر ١٩٧٢.

النتائج المترتبة على الكارثة: وفاة تســعة وتســعين شــخصًا والكابتن والمساعد.

في مســاء يوم ٢٩ ديســمبر أقلَعت الرحلة (٤٠١) من نيويورك وعلى متنِها ١٧٨ راكبًا، وكانت تابعة لشركة (إيســترن إيرلاينز)، وتحمل الرحلة رقم (٤٠١)، وبعد الإقلاع بقليل لم يُقدَّر لهذه الرحلة أن تكتمل وتصل إلى وجهتها، وتحطمت بالقــرب من هضاب (إيفر جليدز) في ولاية فلوريدا الأمريكية، وانتقلت السلطاتُ على الفور إلى مكان الحادث، وقد وجدت الســلطات بعضًــا من ركاب الرحلة ما زالوا على قيــد الحياة، وكان عدد

الــركاب الناجين من هذه الكارثة ٧٧ شــخصًا... حتى الآن لا يُوجَد شيء غريب، وما زال الحدَث شــيئًا عاديًّا، وكثيرًا ما قد يحدث ولكن ستعرف في النهاية لماذا أصبحت الكارثة أو الرحلة (٤٠١) لغزًا وشيئًا غير عادي؟!

◆ بداية التحقيقات والكشف عن أسباب الحادث

اكتشفت هيئة التحقيق وســلامة النقل الجوي تغيير وضعية الطيار الآلي الذي يتحكم في الارتفاع إلى وضعية التحكُّم المقود دون عَمْد؛ وأدى الضغــط الخفيف إلى إبطــاء الطائرة، وكان الوقت ليــلًا والطائرة تُحلِّق فوق هضــاب (إيفر جليدز)، ولم يكُن هناك أضــواء أرضية، ولم يلاحظ الكابتن (لوفت) أن الطائرة تُقلل من سرعتها، وأنها تتجه إلى الأرض.

نتيجة التحقيق: أدان التقرير النهائي الكابتن (لوفت) المساعد؛ بأنهم لم يتفقدوا أجهزة الطائرة في الدقائق الأخيرة قبل الكارثة، واكتشــاف أن الطائرة تهبط إلى الأرض، وتســبب هذا الخطــأ في اصطدام الطائرة على الأرض وخســارة هيكل الطائرة كامــلًا، وبعد ذلك أخذت الشركة المالكة للطائرة المنكوبة بعض أجزاء الطائرة، وركَّبته في طائرة أخرى تابعة لها.

◆ أشباح الرحلة (٤٠١)

بعــد ذلــك أصبحت أشــباح الرحلــة (٤٠١) تظهــر في الطائرة التي اســتُخدمت فيها قطع من الطائرة المنكوبة، وبدأ الموظفون يشــاهدون شبح المساعد (دون ريبو) والكابتن (لوفت)، وبعض الركاب، ووصل الأمر إلى أن الشركــة قد هدَّدت موظفيها بطَرْد من الشركة لو تحدث أحد عن

هذا الكلام، وعدَّت الشركة هذا الكلام مجرد سـخافة، المقصود بها إضرار الشركة.

◆ الضجة الإعلامية:

أصبح حادث الأشـباح يتناقل عبر الناس، وطبيعي أن يتدخل الإعلام والسـينما في هذا الحدث، فأُنتِج فيلم شـبح الرحلة (٤٠١) عام ١٩٧٨، والفيلم التليفزيوني (تحطم الطائرة ٤٠١).

وهنا أريد أن أتوقف بكم، لماذا لم تسأل نفسَك -عزيزي القارئ، ولو مـرة واحدة- هـل الأشـباح لهـا وجود حقيقـي في حياتِنا أو أنها خيال ننسجه لنعيش تحت أَسْر الخوف منه دون أن يكون لها وجود؟

◆ ما الأشباح؟

غالبًا ما تُفسَّر كلمة الأشباح على أنها تمثل روح قتيل أو ميت، وكثيرًا مـا يربـط الناس بين الجنِّ والأشـباح رغم أن تعريـف كليهما مختلف تمامًا. وعادةً ما ترتبط ظاهرة الأشـباح ببقعة معينة؛ كالمنازل، أو البحار والخلاء، وغيرها.

أشـهر القصص هي قصة القس الـروسي (ديمتري) في ليلة من الليالي شـاهَد القس (ديمتري) امرأة جميلة شابة كانت تُريد منه أن يدُلها على مكان ما عـلى الطريق، وقد وقَف ليشرح لها كيف تذهب إلى الطريق، ولكـن كان الغريب عندما انتبَه إلى أن رقبة المـرأة الجميلة تنزف دمًا، وكانت الصَّدمة بعد ذلك عندما تأكد بعد فترة بأنه في الليلة السابقة قد

قُتلت فتاة شابة من النبلاء بنفس صفات الفتاة التي شاهدها، وقد قَطع القاتِلُ رأسَها بالكامل عن جسدها!

أما الحادثة الشـهيرة التي اخترتها، وسردتُ أحداثها المُسـمَّاة حادثة أشـباح الرحلة رقم (٤٠١) بعد هذه الحادثـة كثر الحديث حول ظهور أشـباح طاقم الطائرة المنكوبة في طائـرات الشركة، ورغم أن الشركة قد حاولـت أن تتكتم على هذا الموضوع؛ فإن ظهور طاقم الطائرة المنكوبة في طائرات الشركة وفي طائرات الشركات الأخرى أصبح أيضًا أمرًا لا يمكن إخفاؤه أو السـكوت عليه؛ من أجل ذلك قـد اجتمعت شركات الطيران الأمريكيـة في ذلك الوقت وإصدارات منشـور خـاص لموظفي وطياري الطائـرات قالت فيه: إن هناك بعضَ الحـوادث الغريبة التي تحدث في الطائرات، وإنها حوادث كونية لا مجال لتفسيرها.

إذا كان المقصـود بالأشـباح هُم الجن؛ فهذا حقيقـة وغير ذلك هُم الشـياطين الميت أو الروح التي انقضى أجلُها، وانقطع سبيلُها عن الدنيا، والله أعلم، ويظل حادث الرحلة (٤٠١) هو الأغرب في حوادث الطيران.

وإلى صفحة أخرى من سجلات التاريخ التي لا تُمحَى.

◆ **هيروشيما :**

في الساعة الثامنة والربع صباحًا عام ١٩٤٥م ألقَتِ الولايات المتحدة الأمريكية أول قنبلة ذرية في التاريخ على مدينة هيروشيما.

هيروشـيما: هو التفجير الأول والأكثر شُـهرة، فقد أُسـقطت قنبلة

يورانيــوم تزن أكثر من ٤. ٥ طن، وأخذت اســمًا هــو (ليتيل بوي) على هيروشــيما في الســادس من أغســطس ســنة ١٩٤٥ على جسر (أيووي) ليكــون نقطة الهدف، وحدَّد مكان الصفر عــلى ارتفاع ١٩٨٠ قدمًا، وفي الســاعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة أُســقِطت القنبلة، ولكنها أخطأت الهدف قليلًا، وسقطت على بُعد ٨٠٠ قدم منه.

في الســاعة الثامنة وســت عشرة دقيقة، وكان كل شيء في الأســفل عاديًّا، وكان يومًا مُشرقًا وجميلًا، وبمجرد إســقاط القنبلة ما هي إلا ثوانٍ قليلة وكان ٦٥٠٠٠ إنسان قد قُتِلوا و٧٠، ٠٠٠ قد جُرحوا، وتغير كل شيء على الأرض بواسطة التفجير المتكوِّن من ١٠ كيلو طن.

احــترق كل شيء قابل للاحــتراق، ما تبقَّى من منطقــة التفجير كان مُتوهجًــا من الحرارة الشــديدة. اللَّهب كان ممتدًّا لأكثر من ثلاثة أميال قطر، ومات كل كائن حي قريب من هذه البقعة.

ناجازاكي: في التاســع من أغسطس ســنة ١٩٤٥، التفجير الثاني لمدينة ناجازاكي، الفَرق هذه المرة بأن قنبلة بلوتونيوم هي التي أسقطت عليها. أُطلــق على القنبلة اســم (فات مان)، وقد أخطــأت هدفَها هي الأخرى بمقــدار ميل ونصف؛ ومــع ذلك فقد كان في وســط المدينة تقريبًا، وفي جزء من الثانية فَقَدَ ٤٠ ألف شــخص حياتهم، وأكثر من ٢٠ ألف شخص جُرِحــوا. يقال: إن من شــدة اللهب ودرجة الحــرارة المرتفعة انصهرت أجساد الناس، وأصبحت بقع زيت في الأماكن التي كانوا يجلسون عليها قبل الانفجار، وكانت التقديرات من الفيزيائيين والمختصين الذين درسوا

كلًّا من التفجيرين تشير إلى أن القنابل التي سقطت قد استخدمت فقط ١ مــن عشرة من واحد في المئة من قُدرتها التفجيرية. تخيل ١ من عشرة من واحد في المئة قد تركت كل هذا الدمار! أي ضمير إنســاني يفعل هذا في إنسان؟! بعد هذا الدمار استسلمت اليابان، وألقت السلاح، وأصبحت هذه الصفحة من أسوأ صفحات التاريخ.

◆ راسبوتين، الكونتيسة إليزابيث، كاليجولا

النفوس الشريرة شــخصيات موجــودة في حياتنا، ولكن ما أقصد هنا الأشخاص التي تركت صفحات في تاريخ الشر؛ مما جعل أسماءهم تُسجَّل في سجلات التاريخ الذي لا يُمحى وأنا عن نفسي أجد أن أكثرهم تأثيرًا في التاريخ الحديث هو (راسبوتين)، هذا المشعوذ الدَّجَّال الذي استطاع أن يصل ويتحكم في بلد كامل، وتسبب في قيام ثورة وإعدام قيصر وعائلته، ورغم موت (راسبوتين) إلا أن في كل زمان ومكان يُوجَد (راسبوتين)، قد انتشر في هذا الزمن الدجل والشــعوذة، وأصبح للمشــعوذين مكانٌ بين الناس، بل وأصبح لهم احترام وبركات ولعنات، إذا أخطأتَ في أحد منهم تســمع اللعنات تنزل عليك من كل لسان بل أحيانًا تنزل عليك اللَّكمات والسِّباب وكأنك قد كفَرت!

زمــن أصبح فيه صاحب اللِّحى وحدَه هو مَن يعلم ببواطن الأمور، وكلامــه مُصــدَّق، ويجب عليــك ألا تُناقش في أي أمر يقــوم به، أصبح الدجَّال في هذا الزمن هو العالم بما ســيحدث، ونسي الناس أن مَن يعلم الغيب هو الله (سبحانه وتعالى).

حُب السـلطة كارثة كل العصور، حب التملُّك والنفوذ شيء عجيب، واعتقاد كل ذي فكر بفكره ورؤيته، وأنه الأحق في الاتباع بغضِّ النظر في صواب وخطأ فِكرِه أو مبدئه، أصبح النفاق هو سـمة العصر الحديث، وإرضاء من بيده السـلطة سـواء كان على صواب أو خطأ شيء مُقدَّس، نحن من نَصنع (راسبوتين).

◆ راسبوتين شيطان في ملابس قِدِّيس

كلما قرأتُ عن هذه الشخصية تمالكني الفزع، هل يُوجَد عقل بشري يسـتطيع أن يصل إلى هذا الشر؟! يا الله ما هذا الإنسان؟ شخص واحد بهذا الشر اسـتطاع أن يُدمِّر بلدًا بكامله، وتسبَّب في قيام ثورة في روسيا وإعدام القيصر وأسرته.

وُلد (غريغـوري يافيموفيتش راسـبوتين) في العاشر مـن يناير عام ألف وتسـعمئة وتسعة وستين في قرية بوكروفسـكوي الريفية الواقعة في سيبريا.

وفي طفولته، ظهرت لدى (راسبوتين) رؤى مستمرة عن القوى الإلهية وقُدرات الشفاء الخارقة، واكتسب في فترة مراهقته اسم (راسبوتين)؛ أي: الفاجر؛ بسبب علاقاته الجنسية الفاضحة، وكان حادث اتهامه ذات مرة بسرقة حصان؛ نقطة تَحـوُّل في حياته، هرب على إثرها من القرية، ولاذ بأحـد الأديرة؛ حيـث اتخذ صفة الرهبانية التـي لازمته بعد ذلك طيلة حياته، سجل القيصر (نيقولا الثاني) في مذكراته اللقاء الأول (براسبوتين)

في الرابع عشر من نوفمبر عام آلف وتسعمئة وخمسة، قائلًا: «تعرفنا على (غريغوري)، رجل الرَّبِّ، من أبرشية توبولساك». وبنجاحه مع سيدة القصر، الإمبراطورة (ألكسندرا فيوديوروفونا)؛ إذ اقتنعت تمامًا بقُدراته حين استطاع بإعجاز أن يُخفِّف من المعاناة والنزيف الذي أصاب (أليكسيس نيكولايفبتش)، وريث عرش روسيا المريض بسيَلان الدم. ولم يمضِ وقت طويل منذ أثبت (راسبوتين) قوته الخارقة للإلكسندرا، حتى أصبح مستشارها الشخصي المؤتمَن على أسرارها، يزورها في القصر في موعد أسبوعي مُحدَّد.

بزغ نجم الراهب (راسبوتين) في سان بطرسبرغ، وبالمثل زاد عدد أعدائه؛ إذ رآه كثيرون خارج حدود البلاط يحيا حياةَ السُّكر والعربدة، وغالبًا ما يكون بصحبة العاهرات.

لقد امتلأت مقاعد الحكومة بصائدي الثروة وغير الأكْفاء، ومعظمهم كانوا على استعداد لدفع مبالغ مالية كبيرة لـ(راسبوتين) للبقاء في مناصبهم، فتأثير (راسبوتين) في البلاط القيصري كان يزداد يومًا بعد آخر، وصار بإمكانه فعل أي شيء كتعيين أسقف وعَزْل آخر، حتى إنه عيَّن رؤساء وزارة وعزلهم فيما بعد؛ رئيس الوزراء (بيترستالين) جمع أدلة كثيرة ضد (راسبوتين)، كان يريد أن يثبت للقيصر وزوجته أن هذا الرجل سيئ السُّمعة، فجمع ملفًّا ضخمًا بفضائح (راسبوتين)، وأثبت الملف أن (راسبوتين) شرير، وأنه قادر على جعل القيصر وزوجته دُمى يُحرِّكها كيفما يشاء، وكان الناس يعتقدون بوجود علاقة جنسية بين (راسبوتين)

وزوجة القيـصر، ولم تمضِ فترة حتى اغتيل رئيس الوزراء (بيترسـتالين) بإطـلاق النار عليـه في دار الأوبـرا بينما كان يحضر عرضًـا مع القيصر وزوجته، وبإزاحة ألدِّ أعدائه عاد (راسـبوتين) بقوة إلى الواجهة، وعاقَب كُلَّ مَـن وقف ضده، وعمَّت الفوضى البلاد، ودخلت روسـيا الحرب مع ألمانيا.

وتدخَّل (راسبوتين) في تغيير وزير الدفاع والقادة؛ مما تسبب في قتل آلاف الجنـود، وأصبحت كارثة بكل المقاييـس؛ فقد كان هناك جنود في الجبهة بلا بنادق أو رصاص، وكانوا يرتدون ملابس صيفية والشـتاء على الأبـواب، فتجمَّـدوا حتى الموت، وراجت إشـاعات عن وجود جماعات موالية للألمان، تعطيهم أسرار التحركات والمناورات العسكرية الروسية، وبالطبع كانت القيصرة الألمانية الأصل ومستشارها (راسبوتين) هما على رأس قائمة المتهمين.

ففي حادثة شـهيرة في إحدى السـهرات أخذ (راسبوتين) بعض بنات الهوى، وبدأ يثمل ويشير ويلمح إلى أنه قادر على جعل القيصرة تتصرف كيفما يشـاء، وقيل: إنه في إحدى المـرات رَكَض إلى الشرفة عاريًا، وصاح أمام الجميع أنه هو مَن يحكم روسيا.

صار الجميع في روسيا يعُدون (راسبوتين) هو الشيطان الذي تسبب في كل كوارث البلد، وكل شـخص يُرجع أي بـلاء أو مصيبة حلَّت به إلى (راسـبوتين)، أقارب الحاكم حمَّلوه مسـئولية إضعاف الحكم القيصري، والشـعب أصبح يُعارِض بشدة نفوذه وسـيطرته على الحُكم، وامتدت

هذه المعارضة لتشمل كبار الضباط وأعضاء الحكومة.. لقد اجتمَع الرأي على أن وجود (راسبوتين) أصبح مستحيلًا.

◆ نهاية إبليس

دعوة (راسبوتين) إلى القتل

بحُجَّة أن زوجة الأمير (يوسوبوف) تُريد مقابلته، وقد وقع (راسبوتين) في الفخ، فأتى إلى القصر مرتديًا ملابسه الأنيقة؛ لاعتقاده بأنه سيُقابل زوجة (يوسوبوف) الجميلة، وحال دخوله القصر استقبله (يوسوبوف) بحفاوة، ودعاهُ للنزول إلى القبو لمقابلة زوجته، وهناك في القبو قدَّموا له شرابًا مسمومًا يكفي لقتل مجموعة من الأشخاص، لكن (راسبوتين) لم يتأثَّر بالسُّم، وظل متماسكًا، عندها فقَدَ الأمير (يوسوبوف) تماسكه، وأمسك بمسدسه وأطلق النار على (راسبواتين) مباشرةً، فوقع (راسبوتين) أرضًا، لكنه لم يمُتْ، فعاد هو ورجاله، وأطلقوا النار على (راسبوتين) ثلاث مرات أخرى، فسقط أرضًا بلا حِراك، لكن لم يتركوه هذه المرة، لقد أيقنوا أنهم أمام شيطان حقيقي وليس بشرًا عاديًّا، ووضعوه في عرَبة، ثم أخذوه إلى النهر وأغرقوه هناك.

بعد ثلاثة أشهر فقط من مقتله أطاحت الثورة الروسية بالحكم القيصري، وقضي على آخر جيل من عائلة (رومانوف)، وبعدها بتسعة شهور أُعدِم القيصر (نيقولاس) وعائلته. وأصبحت صفحة من صفحات الشر التي لا تُمحَى من التاريخ.

فما الحياة سوى محطة قادمون منها ومغادرون!

◆ هل لدى الإنسان إرادة حُرة أو لا؟

لــكي تجيب عن هذا الســؤال أنت وأنا نحتــاج إلى عُمْر فوق عُمرنا، لماذا؟

ببســاطة شديدة إذا سألت أحدًا هذا الســؤال سوف تكون الإجابة: نعم؛ لأني لستُ عبدًا أنا حُر، ولكن الحقيقة أن الحرية غير الإرادة الحُرة، جميــع البشر حُر، ولكن تختلف الظروف من شــخص إلى آخر عند أخذ قــرار مــا أو فِعل ما أنت نفســك من الممكن أن تتخذ قــرارًا أو فِعلًا في وقت، وتفعل عكس الفعل في مرة أخرى، لماذا؟ تغير الظروف والضغوط التــي قد تغيرت في حياتــك أو عملك؛ لذلك تجد الــذي يعمل في شركة أو مؤسســة والإدارة التي تتحكَّــم في الأمر تتخذ قرارات ضد مبادئك أو أفكارك التي تؤمن بها تجد نفســك تُنفذها؛ لأنك لو لم تفعل ســتُعاقَب وإذا كررت الأمر مرة أخرى فاعلم أنه اقترب ميعاد طردك من الشركة.

ولكــن ماذا عن الإرادة الحُرة في قراراتك الشــخصية؟ هنا قد تقول: نعم، هذه حياتي الخاصة وأنا الوحيد الذي أملك الإرادة في أخذ القرارات، ولكن عندما نحب شــخصًا حُبًّا حقيقيًّا نجد أنفســنا نُغــيِّر قراراتنا، وفي أوقات نغير شــخصيتنا وأفعالنا من أجل إرضاء مَن نُحب؛ كانت مأســاة (نابليــون) هي حب زوجته (جوزفين) التي تزوجها عن حب، ولم تُخلص له، وألصقت بسُــمعته العار، كان (نابليون) عبقريًّا شــجاعًا مهيبًا أمام جنــوده، ضعيفًا أمام الحــب، كان يفتن العالم وهــي كانت تفتتن بحب غيره!

أعود فأطرح السـؤال: هل أنت صاحب إرادة حُرة أو لا؟ وأترك لكم التفكير.

◆ عالم الخيال:

موجـود واقعًا، ولا يمكن إنكاره أبدًا، وفيه يسـتطيع المرء تركيب ما لا حصر له من الصور الحِسِّـيَّة معتمدًا على المخزون الهائل من المِلفَّات الموجودة في الذاكرة. إذا تخيَّلت أمرًا ما بتفاصيله؛ فإنَّك أوجدته في ذلك العـالم، ولم يبقَ إلا أن يظهـر إلى العالم الحسي لإنجازه على أرض الواقع، فأنت عندما تتخيل وأنت نائم ما سـوف تقوم به في الصباح التالي بعد اسـتيقاظك من النوم فإنَّمـا أوجدت التفاصيل لما سـوف تقوم به، وفي الصباح التالي تُنفِّذه إذا لم يتغير شيء في ظروفك.

لقد حدث معي كثيراً هذا الموقف، ولا بد أنه حصل معك في مرة من المرات؛ حيث تتذكر شيئًا معيَّنًا حصل معك (قابلت شخصًا، رأيت منظرًا، سمعت بعض الكلمات تقف وتقول: لقد سمعت هذا الكلام من قبل، أو هذا الموقف قد حصل من قبل، ولكنك لا تعرف أين حصل هذا الشيء، هل حصل معك في الواقع أو أنه كان في الحلم؟ والأصعب لا تستطيع أن تعرف.. هل هو واقع أو حلم؟ هناك مَن يقول إنه عالم البرزخ أو تلاقي الأرواح، حقيقـة أنا لا أعرف غير أن الرؤيا هي حقيقة مؤكدة مثل رؤيا فرعون وسيدنا يوسف، فإن فرعون (لعنه الله) رأى في المنام الحلم الذي فيه هلاكه على يد موسى (عليه السـلام)، أما معرفة المسـتقبل وادِّعاء

علم الغيب؛ فهذا لا يقول به إلا المنجمون الذين يعتمدون على السِّحر والشعوذة، وهذا ما لا أعترف به.

عندما يعتقد الإنسان صاحب السلطة والمال بفكرة السحر، ويعتمد عليها في حياته تكون تلك بداية كارثة؛ لأن السلطة والمال يجعلانِ منه وحشًا، وينعدم الضمير الإنساني، ولا يسمع إلا نفسه ورغبتها، وتسيطر عليه الفكر الشرير وحُب الدنيا والجشع، وهذا ما حدث مع الكونتيسة (إليزابيث باثوري)، تخيل عندما تفعل امرأة كل هذه الجرائم من أجل الحفاظ على جمالها فقط، وأن تظل بشرتها جميلة، وللأسف فكرة الجمال عند المرأة أصبحت غير مفهومة عند سيدات كثيرات، واختلط الأمر عند النساء والرجال عن مفهوم الجمال لكن الحقيقة هي لا شيء يدوم إلى النهاية، فمَن يحبك لجمالك ينتهي حبه عند انتهاء جمالك، أما مَن يحبك أنت لذاتك ونفسك وفِكرك سيظل يحبك حتى لو فشل هذا الحب، سيظل يحب فيك هذه الأشياء.

◆ **الكونتيسة إليزابيث باثوري:**

هي شخصية واقعية من غرب هنجاريا (المجر الآن)، اشتهرت بجمالها، وحينما بدأت تتقدم بالعمر أُصيبت بجنون الخوف من فقدان جمالها، واعتقدت في أن دماء الفتيات الشابات ستحفظ لها تألقها، وقد نصحتها إحدى الساحرات بذلك، وعلى الفور أمرت حراسها بجلب فتاة عذراء كل يوم من أجل أن تشرب دمائها.

وفي الليـل كانت الكونتيسـة وأصدقاؤها يجوبون القـرى بحثًا عن فتيات؛ لاسـتخدامهن في حمَّامها الدموي، ويقال: إنها كانت تأكل لحوم الفتيات لتكسـب جسمها من شـبابهنَّ، وكانت تدهن بشرتها بدمائهن؛ ظنًّـا منها أن ذلك يوقف زحف التجاعيـد، ويحافظ على نضارة بشرتها، ولكن مرَّت سـنوات ولم تلحظ إليزابيث أي تقدُّم، فاستشـارت ساحرتها مرة أخرى، فأخبرتها بأن دم بنات الفلاحين والخادمات لا يُجدي، وعليها أن تشرب دم الفتيات صغيرات السن من الأسر المالكة والنبلاء، فأصبحت تدعوهن إلى قلعتهـا وتغتنم الفرصة المناسـبة لقتلهن وشرب دمائهن؛ حيث قتلـت ٦٠٠ فتاة من الخدم والفلاحين و٢٥ فتاة من الأسر المالكة والنبلاء، ويقال: إن الرقم ٦٥٠ فتاة.

وصلـت أخبار (إليزابيث) إلى الإمبراطـور الهنغاري (ماثياس الثاني)، وكان من الصعب عليه أخذ قرار القصاص؛ لأنها من النبلاء، لكن البرلمان سَـنَّ قانونًا حتى لا يمكنها الإفلات بفعلتها بعـد أن اعترفت بأنها قتلت مـن الفتيات الفقيرات من الفلاحين والخدم ٦٠٠ فتاة، وقامت بقتل ٢٥ فتاة من العائلة المالكة والنبلاء، حُكِم على مساعديها وساحرتها بالإعدام حرقًا، أما هي فقد أفلتت من حُكم الإعدام؛ بسبب أصولها النبيلة، لكنها حُبِسـت في غرفة في قصرهـا، ووُضِعت عليها القضبـان، وفي عام ١٦١٤ ماتت. ويقال: إنها قُتِلت من أحد الحراس، وأنا أظن شخصيًّا أنه قد دفع المـال لهذا الحـارس من أهل الفتيات اللاتي قـد قتلتهن؛ وبذلك انتهت (إليزابيث)، وأصبحت صفحة من سجلات التاريخ.

◆ **كاليجولا (دراكولا):**

(كاليجولا) كانت لديه فلسفته الخاصة وعباراته الشهيرة: «سأحل أنا محل الطاعون»، وكان يعتقد أن الحاكم الذي لا يكون في عصره مجاعة أو أمراض لن يذكره التاريخ؛ لذلك أغلق مخازن الغِلال في روما، واستمتع برؤية الشعب يموت من الفقر والجوع. انظر إلى هذه الحادثة عندما يستهين الحاكم بشعبه!

في أحد الأيام دخل (كاليجولا) فوق حصانه (إنسياتونس) إلى اجتماع مجلس الشيوخ، وعندما أبدى أحد الأعضاء اعتراضه على هذه الواقعة التي لم يسبقه أحد على فعلها صاح فيه: «أعتقد أن جوادي أكثر أهمية منك؛ يكفي أنه يحملني»!

ولم يتوقف عند هذا الحدِّ من الجنون، فلقد أمر بتعيين حصانه عضوًا في المجلس، وعلى مأدُبة الطعام أعدَّ وليمة من التِّبن والشَّعير، كان (كاليجولا) مثالًا صارخًا على تهاون وضعف الشعوب أمام حكامها.

(كاليجولا) عشق مشاهد الدماء، كان لا يتوانى عن إعدام البشر بالخوازيق أو السلخ، وكان يقف يُشاهد القتل والسلخ بنفسه وهو يبتسم، كان الرجل مريضًا بسادية، مضطرب العقل؛ لقد أجبر الأغنياء على بناء معبد وتمثال له في حرم القدس الذي يتعبَّد فيها الناس؛ مما أثار غضب العامة عليه، وأصبح (كاليجولا) خطرًا حقيقيًّا على الإمبراطورية كلها.

◆ **نهاية السفاح:**

كان (كاليجولا) عائدًا من المسرح الروماني، ويسير في أحد الممرات، عندما فاجأه مجموعة من أفراد عائلته ومن الحراس الشخصيين له، وانهالوا عليه بالطعنات، وكان عدد الطعنات في جسده ثلاثين طعنة، ومات السفاح، ثم قتلت زوجته وابنته، ولم يبقَ من المُقربين غير عمه الذي ظن أن الشعب سوف يقتله هو الآخر، لكنهم جعلوا منه الحاكم والإمبراطور الجديد، وانتهت قصة هذا السفاح (كاليجولا)، والغريب أن الشعب لم يُصدق موته في البداية، وتخيلوا أنها إحدى خُدعِه.

الفيلم الذي أنتجه المخرج الإيطالي (تينتو براس) عام ١٩٧٩، كان الأكثر بشاعة، وكانت بالنسبة إليه أصعب المشاهد المقززة، ولم أستطع أن أكمل مشاهدتها تلك التي يقطع فيها الأعضاء التناسلية للرجال، وتُلقى للكلاب، ويظل هذا الإمبراطور الشاب صورة من تاريخ جنون السلطة الذي لا ينتهي.

وإلى صفحة أخرى من سجلات التاريخ.

الجريمة والعقاب
دوستويفسكي

هو من أروع ما أنجب الأدب الروسي، في حالة هذا الكاتب ينقطع... لا بـل الحقيقة، يحترق الخيط الفاصل بين العبقرية والجنون. أي محلل نفسي هذا؟ وأي ألم يشـعر به عندما يكتب؟ لا أستغرب تاريخه الطويل مع المرض، لكنَّ نفسًـا بهذه الإمكانيات لا تحتمل عالمًا كالذي عايشـه، (الجريمـة والعقاب) هي تحفة أدبية بكل مـا تحمل الكلمة من معنى, عندمـا قرأتها أول مـرة لم أسـتطع أن أكملها، وعندمـا أكملتُها كانت شـخصية البطل قد سيطرت عليه، الظنون التي عصفتْ بالقاتل عصفتْ بي حتـى بِـتُّ أرى في عين النـاس، وكأنهم ينظـرون إليَّ، وأني مَن فعل الجريمة.

الرواية حالة خاصَّة هي أقرب لسباحة في عقل أصابه التَّلَف والجنون بسبب أحوال المجتمع الفاسدة.

(دوستويفسـكي) قدَّم لنا شخصية قد فقَدَت الشيء الكثير، ووصلت إلى مرحلة اللانهاية، فـتراه يتحدى ما يَعترِض طريقه دون أن يُلقِي بالًا، فعندما يرى ما وصلتْ به أحوال المُعدمين، وبيع بعض الفتيات لأنفسهن؛ لسـد حاجة أهاليهن يـزداد إصرارًا لتنفيذ جريمته التـي تقول: إنه من حيث الفكر والمبدأ سـوف يقتل شخصًا كان خنفساء لا يستحق العيش؛ ليسـتفيد من أمواله ويُسـعد من كان معدومًا. (ديستوفسـكي) يأخذنا

في رحلــة صراع ونزاع بــين الخير والشر، وكيف يمكــن للرغبات المكبوتة أن تقــود الشــخص لطريق مجهــول لا يُعلم مصيره، على يــد العبقري (دوستويفســكي)، تجــد النفوس البشريــة متعددة قد تحــب بعضها، ويقشعر جسدك من بعضها.

القراءة لـ(دوستويفســكي) ممتعة ومُرهِقة، قد تعيش الشــخصيات أمامك حتــى تتعلق بهم، وعنــد نهاية الرواية تُودِّع (راســكولينكوف) وبقية الشخصيات كما تُودِّع أصدقاء رحلة كانت صحبتهم فيها ممتعة.

اغتيالات غيَّرت مجرى التاريخ

(إبراهام لينكولن)

(فرانز فرديناند)

الخليفة (عثمان بن عفان).

الجريمة السياسية أو الاغتيال السياسي يختلف عليهما كثير من الناس، ولكن النهاية هي إراقة الدماء حتى تنهي خلافًا ومشكلة بمشكلة أكبر، فصفحات الدم في التاريخ كثيرة، ولكن منها مَن تَرَك كارثة أو فوضى كبيرة جدًّا بعد اغتياله مثل (يوليوس قيصر) الرومان؛ فقد ترك بعد اغتياله حربًا أهلية شرسة، وكانت بداية لتقسيم الإمبراطورية الرومانية، و(مارتن لوثر)؛ حيث ترَك بعد حادث اغتياله فوضى عارمة من السود، أما الرئيس (لينكولن) فترك وراءه مأساة الجنوب الأمريكي، وخلَّدها تاريخ السينما العالمية.

وكان لي موقف طريف مع فيلم الرئيس (لينكولن) في العرض الأول؛ كان معي إحدى الصديقات، ولم تكُن هي من هواة الأفلام ذات الطابع السياسي، وعند عرض الدقائق الأولى من الفيلم بدأت في النوم، وبعد ذلك أحسَّت ببرودة شديدة من المكيف، وكنا في فصل الشتاء؛ فخرجتُ من السينما ولم أكمل الفيلم، وبعد مدة ذهبتُ مرة أخرى مع بعض الأصدقاء، وبعد أن حجزنا التذاكر وجلسنا في الاستراحة قبل بداية الفيلم

بقليــل جــاء تليفون لأحد الأصدقــاء أن والده قد تُــوفِّي إلى رحمة الله، بالطبع تركنا الفيلم ولم أشاهده إلا بعدها بفترة طويلة.

اغتيــال (إبراهام لينكولن) الرئيس الســادس عشر للولايات المتحدة الأمريكيــة بالفــترة مــن ١٨٦١م إلى أن اغتيل عــام ١٨٦٥ أهم حادث اغتيال على يد أحد الممثلين من الجنوب الأمريكي الذي انهزم في الحرب الأهلية الأمريكية في أثناء حضوره عرضًا مسرحيًّا، أدى اغتياله إلى معاناة الجنوب على يد الرئيس التالي (أندرو جونسون)، لفترة طويلة من الزمن بعد انتهاء الحرب الأهلية خاصة، واســتمر الجنوب في قمع السود؛ مما أدى إلى الفــوضى والاضطراب، وكانت الأضرار النفســية كبيرة؛ مما جعل اغتيال (إبراهام) من الاغتيالات التي تركت أثرًا كبيرًا في سجلات التاريخ.

(فرانز فرديناند) من أهم الاغتيــالات التي غيَّرت التاريخ، يكفي أن تعلــم أن أول رصاصــة في اغتياله كانت ســببًا في الحرب العالمية الأولى، أدى اغتيالــه وزوجته في (سراييفو)، عــام ١٩١٤ على يد جماعة مرتبطة بالجيــش الــصِّربي إلى تحميل الإمبراطورية للحكومة الصربية مســئولية الواقعــة لتعلن الحرب عليها؛ ما أدى إلى سلســلة من الأحداث أوقعت الــدول الأوروبية كافة فيها، وجرَّتها إلى الحرب العالمية الأولى، التي راح ضحيتها ١٥ مليون شــخص؛ مما جعل هذا الاغتيال صفحة لا تُمحَى من التاريخ.

مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان

اقتحم المتآمرون دارَه، وهجموا عليه وهو يقرأ القرآن، وألقت بنفسها عليه زوجه (نائلة)؛ لتحميه، لكنهم ضربوها بالسيف؛ فقُطعت أصابعها، وتمكَّنوا منه، فسال دمُه على المصحف، ومات شهيدًا في صبيحة عيد الأضحى سنة ٣٥ هـ، ودُفن بالبقيع؛ مما أدى إلى سلسلة من الفتن والحروب، مثل: موقعة الجمل، ومعركة صفين، وبداية ظهور الخوارج، ورفع قميص سيدنا عثمان الذي قُتل فيه، وأصبح مقتل الإمام صفحة في تاريخ الأمة التي لا تُمحَى من سجلات التاريخ.

علَّمتني الحياة، وما زلتُ أتعلَّم.

مَن أنت؟

داخل الإنسان مليون إنسان آخر بيتغير مع كل موقف إلى شخص آخر.

تحوُّل المشاعر من اليمين إلى اليسار، والحب الكبير إلى كراهية بغيضة، أنت اليوم تحب شيئًا إلى حد التعلق والعشق والهيام، ثم بعد فترة تجد نفسك أصبحت لا تعرف هل أنت ما زلت تحب هذا الشخص أو هذا الشيء، بمجرد أن تصل إلى هذه المرحلة تأتي بعدها اللامبالاة، وإذا استمر هذا الشخص في الضغوط عليك تتحول اللامبالاة إلى كراهية، ولكن بين الحب والكراهية مشاعر لم تنتهِ بعد؛ لأنك لو لم تحمل مشاعر

لهذا الشخص لن تفكر فيه؛ بمعنى: لن يُوجَد حب أو كراهية، وأقصد هنا الكراهية التي تأتي بعد الحب، وليست الكراهية التي تتكون من عدم الاحترام أو أفعال شخص تجعلك تحمل له الكراهية، لكن أتكلم عن تحويل مشاعر الإنسان من اليمين إلى أقصى الشمال، أؤمن بأن داخل النفس البشرية مليون نفس أخرى وأوقات كثيرة لا تعرف مَن أنت، هل أنت الإنسان الطيب العاقل أو الإنسان الشرِس المجنون أو الإنسان الذي يحب الانتقام من نفسه؟ وطوال الوقت يسيطر عليه أنه هو الضحية والمجني عليه؟! كثيراً ما أجد شخصيات تصنع كوارث، وتُوهم الجميع بأنها ضحية المؤامرة عليها، وأن ما تفعله نتيجة الرَّدِّ والدفاع عن النفس، ويظل السؤال هو: مَن أنت؟

الباب الثالث

شخصيات لا تُمحَى من التاريخ

(ماري أنطوانت)، و(هارون الرشيد)، و(جنكيز خان)، و(موتسارت)، و(قطر الندى).

هنـاك شـخصيات في التاريخ قد رحلـتْ من مئات السـنين، ولكنَّ أسـماءها لن تُمحَى من سـجلات التاريخ، منهم مَن ترك أعمالًا ما زالت تعيش بين الناس، ومنهم مَن تـرك أعمالًا غيَّرت مجرى كتابات التاريخ، وهذه بعض الأسماء التي قد كُتِبت بحروف لا تُمحَى في سجلات التاريخ.

«علَّمتنـي الحيـاه أن أحترم عقول البشر، لكـن لا أثق بها» (هارون الرشيد).

«النفس تطمع والأسباب عاجزة

والنفس تهلك بين اليأس والطمع» (هارون الرشيد).

ما أحببتُ شخصية تاريخيه مثل هارون الرشيد، كلما ذُكر اسم هارون الرشـيد تذكرت قصص ألف ليلة وليلة، هذا الزمن الخيالي والأسطوري الجميل، كنت أتمنى أن أعيش في وسـط هـذا الخيال والحكايات؛ عصر هارون الرشيد.

◆ هارون الرشيد

الكتابة عن هارون الرشـيد هي من أحـب الكتابات إلى نفسي؛ لأني أحب هذا الرجل، وربما سـبب حبي له أنـه رجل يحب الحياة، ويتمتع بهـا، ويخاف الآخرة، ويعمل لها، عاطفي القلب، طيِّب، ومتقلِّب المزاج، يخضـع للمؤثرات والتغـيرات المزاجية، كان يُصلي مئـة ركعة في اليوم،

ويحج ماشـيًا على الأقدام عامًا، ويجاهد في سـبيل الله عامًا، وفي العام الـذي لا يحج فيه يحـج ثلاثمئة حاج عنه من الفقراء والمسـاكين، وكان يهتـم بهم، وبكل ما تحتاج إليه القافلة في مسـيرتها إلى الحجاز، ويهيم من ناحية أخرى بالجمال والشـعر والغناء, وأشاهد أبا العتاهية يُحدثه حديث الزهـد والإيمان فيبكي حتى تُغرق الدمـوع لحيته، ثم يحكي له أحدُ الجالسـين نكتة فيضحك حتى يقـع وينام على الأرض من الضحك، ويـرضى عن البرامكة، فيُطلق لهم العنان، ثم يغضب عليهم فيُنكل بهم أشدَّ النِّكال.

لقد كان هارون الرشيد مختلفًا عن كل الخلفاء من بني العباس؛ فقد وضع هارون الرشيد صورة ساحرة للشرق عند الغرب حتى الآن، وعندما يُذكر اسـم هارون الرشـيد عند الغرب يتذكر الغربيون الشرق بجماله وسـاحريته، وكانت علاقته بملك أوروبا (شارلمان) التي خلَّدها الفنانون بلوحات فنية عظيمة موجودة حتى الآن، وتوالَى الوفود والهداية بينهما جعل ذلك التجارة بين الشرق والغرب في أيامه هي العصر الذهبي.

أحب الرشيد؛ لأن مثل هذا الرجل المتقلب المزاج يكون طيب القلب وصريحًا، وما في قلبه يخرج إلى لسـانه، لا يعرف المجاملات، ولا التملق والنفاق، وأحبه أكثر وأكثر كلما قرأت عنه وعن العصر الذهبي، لقد كان عصر هارون من أكثر العصور التي اهتمت ليس بالآداب والفنون فقط، بـل اهتم هارون بجمع الكتب من جميع أقطار العالم، ولقد كان كتاب (الأغاني) للأصفهاني في عهد الرشـيد، وكانت مشكلة الرشيد هي أولاده

والخوف الشـديد على أن يتقاتلوا على الحكم من بعده، وهو ما حدَث للأسف بعد وفاته.

ولقد أثارت نكبة البرامكة شـجون وأحزان القومية الفارسية، وكانت هزيمة الإمبراطوريـة الرومانية والحرب الطويلـة والهزائم أمام جيوش الرشـيد عمدت إلى تشويه وإفساد الصورة عن الرشيد، فوصفوه بأبشع الأخلاق؛ وأنه كان يُعاقر الخمر، ويحب النساء، وهي الصورة التي نقلت إلى كتاب (ألف ليلة). ولم يقف الانتقام عند هذا الحد؛ لقد اخترعوا قصة أخته العبَّاسـة؛ للنَّيل من الشرف العباسي كله، لقد ظَلَم التاريخُ الرجلَ، ولكـن (ابن خالدون) هبَّ مدافعًا عن هارون الرشـيد يُكذِّب كل هذه الحكايات عن الرجل، ويقول: «إنه كان يصلي في اليوم مئة ركعة، فكيف يشرب الخمر وهو يحج ماشـيًا على الأقـدام ولم يفعلها خليفة قبله؟!». والغريب أن بعد هارون الرشيد لم يحُج خليفة ولا عباسي ولا فاطمي!

◆ **ميلاد هارون الرشيد**

وُلد ببلدة الري، بطبرسـتان في أول محرم ١٤٩هـ وقيل: في آخر ذي الحجة سـنة ١٤٥هـ بُويع هارون الرشـيد بالخلافـة في ١٢ ربيع الأول سنة١٧٠هـ وعندما تنظر إلى الدولة العباسية تجد أنها من أطول الدول التي طال عمرها؛ فمثلًا كان عمر دولة الخلفاء الراشدين نحو ثلاثين عامًا، والدولة الأموية عاشـت في حدود مئة عام، ثم جاءت الدولة العباسية، وعاشـت خمسـمئة عام، وكان حكم الأمويين عربيًّا خاليًا من المظاهر،

وكان حكم العباسيين حُكمًا فارسيًّا، كانت قصور الأمويين فخمة لكن بسيطة، أما العباسيون فكانت فخمة ومُعقَّدة، وتميل إلى قصور الأكاسرة.

ولقد تغيَّر النظام السياسي في العصر العباسي بعدَ أن كان النظام الأموي يقوم على العنصر العربي والدم العربي، فأصبحت الدولة العباسية تُقيم أساسها على الدم الفارسي والتقاليد الفارسية، وفي هذه الظروف تولَّى (الرشيد) الحُكم، وجلس في (قصر الخلد) في بغداد، ورغم هذه الظروف والمتغيرات السياسية والاجتماعية فإن هارون الرشيد كان مثقفًا ثقافة عربية؛ فلقد علَّمه الأدب (المفضل الضبي)، والنحو (الكسائي)، وكان المفضل لديه في الغناء (الموصلي).

وكان هارون الرشيد يُحب العلم، ويحترم العلماء، وانتشرت الكتب والعلوم والآداب في عصره، فعندما دخل هارون الرشيد على (الأحمر) مُعلِّم ابنه (محمد الأمين)، قال: «يا أحمر»... قبل أن أُكمل أريدك أن تعرف أن في عهد هارون كانت الدولة في أشد قوتها، وكان العصر الذهبي للدولة، ويدخل الرجل الذي يحكم هذه الدولة على أحد أفراد شعبه الذي يُعلِّم ابنه ويقول له: «يا أحمر، أنا أمير المؤمنين وقد دفعت إليك مُهجة نفسي، وثمرة قلبي؛ فصيِّر يدَك عليه، وطاعته لك واجبة، وكُنْ له بحيث وضعَك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعَرِّفه الأخبار والأشعار، وعلِّمه السُّنن، وبَصِّره بمواقع الكلام، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخُذْه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ولا تمر بساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه، فتُميت ذهنه، ولا

تُمعن في مُسامحتِه فيستحلي الفراغ ويألفه، وقَوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أبَى هذا؛ فعليك بالشِّدة والغلظة».

هذا هو هارون الأبُ، ربما كانت شهرته أكبر منه، وحظه كان أكبر من ذكائه وصفاته، وربما لم يكُن بذكاء من قبله من الخلفاء، وربما لو فعل غيره نكبة البرامكة لتغير التاريخ، ولكن هو المكتوب والقدَر، كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء، وعلامة تعجُّب، ونقطة فاصلة في تاريخ هارون الرشيد؛ فقد أعطاهم كل شيء، ثم أخذ منهم كل شيء، وفتك بهم، وقد هزَّت هذه الحادثة صورة الرشيد؛ لأن البرامكة كانوا يتولَّون كل شئون الدولة، ويتقربون إلى الشعراء وإلى عامة الناس، وقد حملوا الدولة، وكان هارون في بداية حُكمه ولم ينضج سياسيًّا بعد، ونكَّل بهم وهو ناضج وقوي وذو خبرة في الحُكم، ويستطيع أن يتحمل شئون الدولة كلها دونهم، وأنا لستُ حاكمًا، وخصوصًا أننا لم نسمع من هارون حُججه لِمَ فعل ذلك؟ وماذا كان يدور في عقله؟ وكذلك لم نسمع من البرامكة دفاعهم عن أنفسهم.

صمَّم الرشيد على قتل جعفر، وكان صديقه، والمقرَّب إليه، وسجن يحيى وبقية أولاده، وصادر أموالهم، ونكَّل بمَن يمدحهم أو يذكرهم أمامه، وذاقتِ البرامكة البؤس والشَّقاء بمقدار ما ذاقت من النعيم، وتُوفِّي يحيى وهو في السجن، ثم لحق به ابنه الفضل.

◆ مرض الرشيد وموته

دخل خادم هارون الرشيد عليه، وكان الرشيد جالسًا مهمومًا، فقال لـه الخادم: جعلني الله فداك، ما بـكَ؟ قال هارون: «رأيت كأني جالسٌ عـلى سريري هذا وإذ ظهرت من تحتـي ذراع أعرفها وكف أعرفها، وفي الكف تربة حمراء، ثم سمعت صوتًا يقول هذه التربة التي سوف تُدفن فيهـا، فقلت: أين هـذه التربة؟ قـال: في طوس، وغابـت اليد وانقطع الكلام». وهو في طريقه إلى خراسان اشتدَّ عليه المرض، فذكر هارون تلك الرؤيا وقال لخادمه: أتذكر رؤيايَ؟ ثم رفع رأسه، وقال: جئني من تربة هذا المكان. فمضى الخادم، وجاء بتربة حمراء، فقال الرشيد: هذه والله هـي التربة التي كانـت في منامي، وأخذ يبكي بكاءً شـديدًا ويقول: «يا مالكَ الملوك، يا صاحبَ الملك الذي لا يزول مُلكُه ارحَمْ مَن زالَ مُلكُه».

واشـتد به المرض، ومات هارون الرشيد وهو في الخامسة والأربعين من عمره، وقد وصل اسمه إلى الشرق والغرب، وسجل اسمه في سجلات التاريخ التي لا تُمحَى.

◆ ماري أنطوانيت (١٧٥٥ - ١٧٩٣ م) ملكة فرنسا

اشـتهرت بجمالها وذكائها، وقد وُصِمت بالفساد والخيانة، وأصبحت ملكـة غير مرغوب في وجودها على عرش فرنسـا، كانت الملكة الصغيرة جميلة وذكية ومتهوِّرة، وقد ملَّت الحياة الرسـمية في البلاط الملكي؛ لذا اتجهـت إلى الترويح عن نفسـها بالحفلات الفخمة التـي كلفت الدولة

الكثير من الأموال، وكانت تُقامر على أي شيء، كانت مشكلتها الحقيقية أنهـا لم تنلْ قِسـطًا جيدًا من التعليـم، ولم تكُن تعطـي الأمور الجادة الاهتمام، وقـد أعطاها الملك (لويس) قصر (بتي تريانون)؛ حيث كانت هي وصديقاتها يُروِّحن عن أنفسهنَّ.

أصبحـت (ماري) مكروهة جدًّا من الشـعب وقد أُنِّبت على فسـاد البـلاط الفرنـسي؛ حيث كانت تُسرف في النفقة على ملذاتها وحاشـيتها من البلاط، ولم تعطِ أي اهتمام للأزمة المالية بفرنسـا، وحالة الفقر التي يعيشـها الشعب. وقد رُويت القصص السيئة عنها، حتى وصل الأمر إلى اتهامها بالتجسُّـس لحساب النمسا. ويقال: إنها سألت ذات مرة مسئولًا رسـميًّا عن سبب غضب الباريسـيين، فكانت إجابته: ليس لديهم خُبز. فكان ردُّها: «إذن دَعْهم يأكلوا البسكويت»!

وُلـدت (ماري) بفيينا بالنمسـا، وكانـت الابنة الصغـرى والمفضلة للإمبراطـور (فرانسـيس الأول) و(ماريـا تيريزا) حاكمـي الإمبراطورية الرومانية.

تزوجت ولي العهد الفرنسي في عام ١٧٧٠م. وبعد أربعة أعوام أصبح الملـك (لويس السـادس عشر)، وأصبحت (ماري) الملكـة، ولم يكُن عام ١٧٨٩ م عـام الحـظ لها، بل على العكـس كان العام الـذي انطفأ فيه نجمهـا؛ حيث تُوفي ابنهـا الأكبر، ثم بدأت الثورة الفرنسـية، ولم تعرف (مـاري) الراحة في الأربع سـنوات الباقية من حياتهـا، وقد فقَدَ زوجُها الضعيف سـيطرتَه عـلى البلاد، وحاولتْ هي أن تقـوِّي من إرادة الملك

لويس، ولكن كان ذلك سببًا في غضب الشعب عليها أكثر، وعُدَّ ذلك معارضة منها للتغييرات الثورية في الوقت الذي كانت (ماري) تعمل للحصول على المساعدة من الخارج، خاصة من أخيها (ليوبولد الثاني) ملك النمسا، وقد رفضت أن تنفذ أي طلبات للثوار.

بدأت الحرب مع النمسا وبروسيا في عام ١٧٩٢م، وأفشت أسرارًا عسكرية إلى الأعداء، وأيقن الشعب أنها مُذنبة. وفي ١٠ أغسطس ١٧٩٢م ألقى الشعب بحكامه في السجن؛ حيث أوقف الملك عن تولي أمور مُلكه، وانتهت الملكية. وأُعدم لويس السادس عشر بالمقصلة في ٢١ يناير ١٧٩٣م، وقُدمت (ماري أنطوانيت) إلى المحاكمة بتهمة الخيانة، وأُعدمت بالمقصلة هي الأخرى في نفس العام. وتظل صفحة من سجلات التاريخ التي لا تُمحَى.

◆ جنكيز خان ١١٦٥ - ١٢٢٧

«أنا عقاب الرب.... فماذا فعلتَ لكي يبعث الله عليك عقابَ مِثلي؟».

«إذا جسدي مات، اسمحوا لجسدي أن يموت، ولكن لا تدَعوا بلدي تموت».

◆ نادرًا ما ترك نتيجة صراع غير محسوم

اختلف المؤرخون حول الرجل، هل هو قائد عسكري عبقري أو سفَّاح؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال يجب أن نعرف حياة الرجل، ولقد بحثت كثيرًا جدًّا حتى أعرف الجواب عن هذا السؤال.

بدأ الرجـل حياته بطفولة صعبة جدًّا؛ حيث قُتل أبوه بالسُّـم وهو في سـن التاسعة، وتركه هو وإخوته، ثم طردتْ قبيلتُه أمَّه هي وأطفالها السـبعة، وكان هـو وإخوته يتنافسـون على الطعام، ثـم بعد ذلك في مراهقته خُطِف هو وزجته من العشـائر الأخرى المنافسة، وأصبح عبدًا، ثم هرب بعد ذلك وقد تغيَّر، وأصبح يحلم بجمع القبائل المغولية.

وفي سـن العشرين استطاع أن يكون قائدًا ومحاربًا، ثم بدأ التحالف مع زعـماء القبائل الأخـرى، وفي عام ١٢٠٦ اسـتطاع أن يوحِّد القبائل تحـت راية واحدة، وأطلق عليه اللقـب الذي صاحبه طوال حياته وهو (الخـان العظيم). بعد ذلك بدأ (جنكيز خان) التفكير في التوسـع وبناء إمبراطورية، كل ذلك شيء عظيم، ولا يُوجَد ما يجعل الرجل سـفاحًا بل على العكس، كل ذلك يجعل منه قائدًا عبقريًّا أمام شعبه، ما أقصده هنا أن أنا وأنت لن نسـتطيع أن نتحمل أن نقول إنه قائد عظيم؛ بسبب ما فعل التتار في العالم، وأنا معك في ذلك لكن بالتأكيد هو أمام شعبه بطل.

ويُعَـدُّ (جنكيز خان) في منغوليا مؤسسًـا للدولة وبطلًا قوميًّا، ولكن العالم خارج حدود منغوليا يعُده سـفاحًا ومسئولًا عن موت ملايين من النـاس، وكان نـادرًا ما يترك صراعًا غير محسـوم، وأبشـع المجازر التي ارتُكبـت في حياته بعدما خرق شـاه الإمبراطورية الخوارزمية اتفاقه مع المغول وقتل رسـل المغول، وكان رد الخان الغاضب بأن أرسـل جحافل المغـول إلى أراضي الإمبراطورية الخوارزمية مُخلِّفًا ملايين القتلى والجُثث المتعفنـة من الأطفال والنسـاء والشـيوخ ودمارًا شـاملًا للإمبراطورية

الخوارزمية. ومن الصعب معرفة العدد الحقيقي لضحايا الغزو المغولي، لكن أغلب المؤرخين يُقدِّرونه بأنه فوق العشرين مليون قتيل.

◆ وفاته واللُّغز الكبير

كـما كان الرجل غريبًا في حياتـه كان غريبًا أيضًـا في مماته، لا أحد يعرف كيف مات أو أين قبرُه؛ تقول المصادر: إنه وَقَع من على حصانه، وقـد كانت إصابته بالِغة؛ ومات على إثر ذلك، ومصادر أخرى تقول: إنه مات بسـهم مسـموم، أو بمرض الملاريا الذي كان منتشرًا وقتها، وتقول مصـادر أخرى -وهي القصة الشـائعة- إنه لم يُـرد أن يعرف أحد مكان قبره، وقد نفَّذ ذلـك الجنود، تقول الرواية: إنهم ذبحوا كل مَن صادفوه في طريقهم إلى الدفن حتى لا يعرف مكان القبر أحدٌ.

وانتهت بذلك صفحة هذا الرجل الذي تختلف معه، لكن لا تستطيع أن تمحو اسمه من سجلات التاريخ.

◆ موتسارت (١٧٥٦-١٧٩١)

ذلك المعجزة وصاحب المأسـاة، هذا الرجـل القامة الكبيرة التي من الصعـب أن تتكـرر، هذا الرجل الفريد في جميع أنواع الموسـيقى، هذا الرجل الذي أبدَع في عمله، ومات في سـن الخامسـة والثلاثين عامًا. لقد عُرفت موسـيقى (موتسـارت) عن طريق الأوبرا، وأنا عاشق لهذا الفن، ثم أصبحت هائمًا مع (موتسارت) أكثر بعد أن عرفتُ كيف عاش الرجل وكمية المعانة التي عاناها الرجل، حتى أصابه المرض وهو في ريعان شبابه!

يكفــى أن تعــرف أن هذا الرجــل بكل ما أبدعه من موســيقى كان مُفلسًــا ومديونًــا، ولا يملك طعامــه ولا طعام أسرتــه، وعندما مرض لم يســتطِع أن يشــتري الدواء! لقد كانت حياته صعبة جــدًّا، ورغم ذلك؛ فإنه لم يتخلَّص من الحقد والحسد الذي كان يحمله له زملاؤه في مهنته، وخصوصًا الموسيقي (ســالييري) الذي كان أكثرهم حقدًا عليه، فقد كان ينظــر إلى (موتســارت) ويقول: «لمــاذا وَهَبَ الله موتســارت كل هذه الموهبــة وهو من عائلة فقيرة؟!». ويضحك مثل الطفل، ولا يأخذ شــيئًا على محمل الجد؛ حيث كان (ســالييري) يريد أن يكون هو صاحب كل مؤلفات وإبداعات موتســارت؛ لأنه يرى أن موتســارت لا يستحق كل هذه العبقرية.

لقد استطاع (موتسارت) تغيير الموسيقى في زمنه، وكانت أوبرا (الناي الســحري) صدمة لكل محبي الموســيقى، كانت الناي الســحري باللغة الألمانيــة؛ حيث كان الوســط الفني يظن أن اللغة الألمانية غير مناســبة للغناء، ولكن (موتسارت) فعلَها. ومن أهم أعمال موتسارت الفنية هي (كونشــيرتو البيانو الأخير)، (كونشــيرتو الكلارينت)، والقداس الجنائزي (ريكويم) غير المكتملة، والتي كان يقول عنها موتسارت: إنها تقتلني.

وكانــت لها قصــة عجيبة؛ حيث كان يجلس (موتســارت) في البيت، وقــرع رجلٌ مُقنَّع ذو شــكل مخيف باب موتســارت، وكان يحمل معه عرضًا، كان (موتســارت) في هذه الأيام في أشد الحاجة إلى المال، وكانت تدفعــه زوجته إلى العمل لجَمْع المال، وكان العَرْض من الرجل المُقَنَّع إلى

(موتســارت)؛ أن يُؤلِّف قداسًا جنائزيًّا، وألَّا يذكر اسمه عليه، وألا يسأل عن اسم المستفيد الذي سوف يضع اسمه مكان (موتسارت) على العمل، وقــد وافق (موتســارت) على ذلك، ولكنه ماتَ قبــل أن يُكمل القُدَّاس الجنائزي، وقام أحد تلاميذه بذلك.

كان (موتســارت) مريضًا جدًّا في هذا الوقت؛ مما جعله يشــعر بأنه يكتب هذا القداس لنفســه؛ وهو ما حدَث فعلًا؛ فمات موتســارت، ولم يُكمِل القُدَّاس. وقد عُرف بعد ذلك المســتفيد؛ وهو الكونت (فرانز فون فالزيغ)، الذي فَقَد زوجته، وأراد أن يُقدِّم قُدَّاسًا جنائزيًّا من تأليفه هو أمام الناس.

◆ وفاته ودفنه المُخجِل

اشــتدَّ على (موتســارت) المرض وهو يعمل على القــداس الجنائزي، فرحل (موتسارت) عن الدنيا وهو في عمر الخامسة والثلاثين. كان عمره قصيراً ولكن أعماله خالدة، وكان يوم دفن (موتسارت) عاصفًا، فقد كان عدد المشــيعين لهذا المعجزة خمســة أفراد فقط، كان منهم (ســالييري) وتلميــذه (سوســماير) الذي أكمل القُــدَّاس، ودُفن في مقــبرة القديس (مــارك) في حُفرة جماعية للفقراء والمتســوِّلين، وتنتهي حياته العبقرية بهذه المأســاة والشــكل الحزين، والمؤســف والطريقة المخجلة لتاريخه الموســيقي والذي يُعدُّ نقطة سوداء في تاريخ الموسيقى كلها، ولكن يظل (موتسارت) الفنان المعجزة صاحب المأساة والذي صعب أن يُوجَد مثله،

أو يتكرر مرة أخرى، إنه (موتسارت) صاحب الناي السِّحري والقُدَّاس الجنائزي.

◆ قطر الندى.. زواج أفلَس مصر

اسمها الحقيقي (أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون)، هي من أشهر النساء في تاريخ مصر؛ ويرجع ذلك إلى ما أحاط حفل زفافها من مظاهر العظمة والثراء الفاحش، حين زوَّجها أبوها من الخليفة العباسي المعتضد بالله.

◆ أصل الحكاية:

«لم تَعُد يا ولدي الخلافة العباسية غير رداء خَلق، ملأه الفقر بالرُّقع، وما أحسب جيوشنا تثبت ساعة أمام جيش خمارويه»، هكذا كان رد الخليفة (الموفَّق) على ابنه (المعتضد) بعد أن وصلتْ أنباء جيش (خمارويه) إلى بغداد، لكن (المعتضد) لم يُعجبه هذا الضعف من أبيه الخليفة، وقال: «أرسِلني على رأس الجيش وسترى ما أفعل»، فهدَّأ الخليفة ابنه بالقول: «خزينة خمارويه حافلة بالمال، وقُدرته على الإنفاق على الحرب لا نستطيع أن نُجاريها، ونحن نستجدي أقوات الجند ورواتبهم»، فيرد المعتضد: «والله يا أبي إن لم تُرسلني إلى هذا الرجل، لخرجتُ إليه وَحْدي، فما كنتُ سليل البيت العباسي وحفيد الرشيد إن لم أُجرِّد خمارويه من مصر والشام، وأضم كل ذلك إلى ملكي». ولكن الخليفة (الموفق) رفض ذلك إلا أن (المعتضد) ظل في انتظار الفرصة حتى

يُحقِّــق هذا الحلم، فبعد أن مات أبوه الموفق قــرَّر أن يُجيِّش الجيوش ليزحف بها إلى مصر، ولمَّا وصلت الأخبار إلى مصر وخمارويه قال: «رحم اللــه أبــاه المُوفق، كان أذكى، وأوفر حِكمةً مــن ابنه المعتضد، فلو طلب منَّــا أن نزيد في خراجه لفعلنا، فما نحن إلا ولاته على الأقاليم، ولكن بما أنه عزَم على حربنا، فلا خيار لنا ســوى الرَّدِّ، ثم جمع قادة جيشه، وأمر أبا عبد الله بن ســعد (قائد جنده) بأن يخرج إلى مشــارِف العراق، وأن يَعرِض عــلى المعتضد أن يُضاعف له الخَراج، فــإن أبَى إلا الحرب فلا بد من تبديد شــمل جيشه، على ألَّا يدخل القتال مقر الخلافة العباسية إلا بأوامر من (خمارويه) نفسه.

ولكــن كانــت الخيانة من قائــد جيش (خمارويــه) أبي عبد الله بن ســعد، بعــد أن نجَح الخليفة المعتضد في اســتمالته إليــه؛ حيث أقنعه بأن (خمارويه) يبخل عليه بالزواج من ابنته! فانضم بجيشــه إلى جيش المعتضد.

وتصل الأخبــار إلى والي مصر (خمارويه) بخيانة قائد الجيش، فيُقرِّر الخروج إليهم بنفسه على رأس الجيش، ويوصي ابنه: ويقول له: «سوف أتــركك مكاني هنــا، فإذا نصَرَنا الله عُدنا غانمين، مُنتصرين، وإذا شــاءت إرادة الله ألَّا ننتصر، فأنشــدك الخير في أهل مصر، وأوصيك بأختك قطر الندى؛ فهي وردة يانعة، ليس لها مَن يحميها من الأيدي الطامعة سِواك، فلا تُســلِّمها إلا إلى خير الناس، ممَّن هي تــرضى عنه»، ثم يرد ابنه (أبو العســاكر): «إن نــصرك الله على المعتضد، أتمنــى ألَّا يدخل إلى مصر إلا

وهــو مُقيَّد بالحديد». ولكن (خمارويــه) القائد الوفي يقول كلمته التي يرد بها على كل خائن: «كلا يا ولدي.. بل إذا انتصرت وظفرت بالمعتضد خليفة المسلمين، وأمير المؤمنين، فســأُعيده إلى بغداد معزَّزًا مُكرمًا، فما يزيل الأحقاد إلا الصفح الجميل، ولولا أنه رفع الســلاح علينا؛ ما بادرنا بحربه، إنه الخليفة وأمير المؤمنين».

وكانت هزيمة المعتضد ساحقةً في المعركة، بعد أن وقعت جيوشه كلها في الأسر، لكن (خمارويه) أمَر بأن يُعامل الخليفة بما يليق ومكانته كونه أمــير المؤمنين، ثم وعدَه بمضاعفة خَرَاج مصر، بل وعده بما هو أكثر من ذلــك عندما عقد العَزْم على مُصاهرته بزواج ولي عهده وابنته الوحيدة، ولكن الخليفة المعتضد طلَبها لنفسه، وكانت أسماء (قطر الندى) أجمل نســاء عصرها وأوفرهن ذكاءً وثقافةً، وقد وُلدت في قصر القطائع، الذي أنشــأه (خمارويــه) على غرار قصور ألف ليلة وليلــة، وكان عمرها عند الزفاف أربعة عشر عامًا، بينما كان المعتضد رجلًا كبيراً في السن.

ذكــر المؤرخون أن قافلة العروس (قطر الندى) حملت ما لم ترهُ عينٌ أو تســمع به أُذن؛ أربع قطع من الذهب، عليها قُبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشــبيك قرط مُعلَّق فيه حَبة من الجواهر لا تعرف لها قيمة، دكة من الذهب، تضع عليها قدمها، كلما دخلت إلى حُجرتها، مئة هــاون من الذهب يدق فيها العــود والطيب، ألف مبخرة من الذهب، وألــف تكة ثمنهــا عشرة آلاف دينــار، ومئات الصناديــق المحتوية على الملابس، والأقراط، والسلاسل الذهبية، وفصوص من الأحجار الكريمة.

يقول المقريزي: «إن ابن الجصاص المُشرف على هذا الجهاز الأسطوري بعــد أن فرغ من إكمال الجهاز ذهــب إلى (خمارويه) يُقدِّم المال الذي بقي معه وهو أربعمئة ألف دينار.. فأعطاها له خمارويه».

ويقــول ابن الجوزي في العراق: «إن (خمارويه) أعطى ابن الجصاص مئة ألف دينار أخرى بعد أن اشترى ذلك الجهاز الخرافي من مصر، وقال لــه: لعل بالعراق ما نحتاج إليــه، ولا يكون موجودًا معك بالجهاز.. فلم يجد ابن الجصَّاص شيئًا يشتريه، فأخذ لنفسه الأموال».

أمرَ (خمارويه) والي مصر أن يَبني لابنته (قطر الندى) على رأس كل مرحلة من مراحل طريق الســفر الطويل -فيما بين الفســطاط وبغداد- قصرًا تنزل فيه، مُعدًّا بكل ما تحتاج إليه العروس في ســفرها من الراحة وأســباب الرفاهية؛ لتشــعر وكأنها في كل قصر تنزل فيــه بأنها لم تُفارق قصرها الذي عاشت فيه.

خرج في موكب العروس عمُّها (شيبان بن أحمد بن طولون)، وجماعة مــن الأعيان، بالإضافــة إلى ابن الجصاص الجوهــري. ويقول المؤرخون: إنهم كانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فإذا وصلت إلى المحطة نزلتْ فوجدتْ قصرًا فاخرًا مُجهَّزًا بكل أنواع المفروشات والستائر، وبكل أنواع التســهيلات والمُؤَن للإقامة والراحة، وبعد الاستجمام يواصلون السير إلى محطة أخرى؛ حيث يستقبلهم قصر آخر.

وحــين وصل موكــب العــروس إلى بغداد ليــلًا بين آلاف الشــموع

والمشـاعل، دخل موكـب قطر الندى قـصرَ دار صاعد انتظـارًا لزوجها الخليفة الذي كان خارج بغداد.

وفي يـوم الزفاف كانت هنـاك احتفالات أخرى لم تـرَ بغداد مثلها، عـلى امتـداد تاريخها؛ حيث أمر الخليفة بألَّا يَعـبُر أحدٌ نهر دجلة، وأن تُغلـق أبواب الدروب والطرقات التي تفتح على شـاطئ دجلة، ومنعوا الناس من الظهور على الشاطئ. وفي وقت العشاء جاءت سفينة من دار الخليفة المعتضد تحمل الخدم ومعهم الشموع، ورَسَتِ السفينة مقابل (دار صاعد)؛ حيث تُقيم (قطر الندى)، ومعها أربع سـفن أخرى صغيرة تحمل الزيت لتُضيء الشموع.

وانتقلت (قطر الندى) من (دار صاعد) إلى السفينة، ثم منها إلى دار المعتضـد، فأقامت فيه يـوم الإثنين في جناح خاص بها، ثم دخل بها يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الأول سنة ٢٨٢ هـ، ولما قُتل أبوها (خمارويه)، وصل خبرُ ذبحه إلى المعتضد قبل أن يصل إلى قطر الندى. ودخل المعتضد على قطر الندى، فأحسَّت بفتور في معاملته إياها، فقالت: أحسَن اللهُ عَـزاءكَ يا أمير المؤمنـين في (خمارويه)، وجعل مـن غلمانك خيرَ خلف منـه. فقال لها: أبلَغكِ قتلُه؟ قالت: لا واللـه، ما يدخل إليَّ خبرٌ من غير علمك. قال: فمن أين عَرفتِ ذلك؟ قالت: كان أمير المؤمنين طوال حياة أبي يُبدي لي بِرًّا ومعاملة حسنة؛ لمكانة أبي، فلما رأيتُك اليوم قد عاملتني بفتور ولم أفعل ذنبًا أسـتوجب به هذه المعاملـة قد خطر بخاطري أن أبي مات.

فاســتحيا المعتضد واعتذر، ثم قال لها: فــما بالك لا يظهر عليك أثر الحــزن عليه؟ قالت: فرَحي بكَ يغلب على حــزني عليه، والرِّضا بحياتك يقهر الســخط على موته! فقبَّل رأسها، وحلَف على أنه سيرعاها في موت أبيها أكثر من رعايته لها في حياته.

ماتت الأميرة الجميلة (قطر الندى) في شهر رجب عام ٢٨٧ هـ، بعد خمس سنوات فقط من زواجها، وكانت في الثانية والعشرين من عمرها، ودُفنت في قصر الرصافة ببغداد، ثم مات الخليفة زوجها بعدها بعامين. وانتهت صفحة أشهر عروس في التاريخ.

علَّمتني الحياة أنَّ من الناس مَن يعيش لنفسه وهو يظن أن السعادة تُلاحقه، وهو لا يعلم أنه فَقَدَ الأصدقاء وحُب الإنسان إلى أخيه الإنسان.

◆ فنسنت وليام فان جوخ

الهولندي (فنســنت وليام فان جوخ) أحد أهمِّ الرســامين العالميين، ويُعَد أهم رسام بعد (رامبرانت)، وأحد أهمِّ الرسامين في مدرسة ما بعد الانطباعيــة، كما يُعَدُّ (فان جوخ) أحد أهمِّ المؤثرين في تيار الانطباعية، رســومه بعض من أكثر شهرة وشــعبية في الفن الحديث؛ وذلك لقُدرته البارعة على استخدام الفرشاة والألوان.

وُلد (فنســنت) في ٣٠ آذار/ مارس عام ١٨٥٣ م، وتُعَد الطفولة التي عاشــها (فان جوخ) طفولةً بائسةً ومُتعبة؛ إذ كانت عائلته تعاني ضوائق ماليــة؛ مما أدى به إلى أن يترك المدرســة في ســنِّ ١٥ عامًا؛ من أجل أن

يعمــل في متجرٍ لخالــه، وفي هذا المتجــر تعلَّم (فنســنت) العديد من اللغات، ومنها: الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية.

مضــتْ بدايــات حياة (فان جوخ) بشــكل ســيئ؛ إذ لم يتمكن من الاســتمرار في وظيفــة محددة، لينتقل بعد ذلــك إلى معرض (جروبيل) في لندن عام ١٨٧٣ م؛ حيــث أُعجِب بالثقافة الإنجليزية، وزار المعارض الفنية والمتاحف في أوقات فراغه، كما أصبح مهتمًّا بالأدب، وخصوصًا بما يكتبه (تشــارلز ديكنز) و(جورج إليوت)، وهكذا بدأ (فنسنت) يتلمَّس بداية مسيرته الفنية.

تُعَدُّ مسيرة (فان كوخ) الفنية قصيرة، فقد كافح خلالها وخلال حياته ضدَّ العديد من الاضطرابات النفسية والعقلية التي واجهته، وكذلك فإنَّه بقــي فقيراً وغير معروف بالنســبة إلى الناس طوال حياتــه، وتُوفِّي (فان جوخ) في فرنســا عام ١٨٩٠م في سن السابعة والثلاثين إثر إصابة ناجمة عن طَلْق ناري.

◆ **معلومات مهمة عن (فان جوخ):**

كانت حياته عــلى الرغم من قِصرها؛ فإنها كانــت مليئة بالأحداث، ووردَت عنــه العديد من المعلومات بعضهــا صحيح وبعضها غير مؤكَّد، ومن أهمِّها ما يأتي:

◆ **قصة قطعه لأُذنه**

وهي قصة ليست مؤكدة؛ تحكي القصة الشائعة أن (فان جوخ) قطع

جزءًا من أذنه؛ وذلك بسبب غضبه من مشاجرة حدَثت بينه وبين زميله في السـكن (غوغان)، ولكن نشر أكاديميون ألمـان في عام ٢٠٠٩ م كتابًا قالـوا فيه: إن أذن فان جـوخ قد قُطِعت في أثناء مبارزة بالسـيف مع (غوغان)، وهذا يجعل الحقيقة بخصوص قطعه لأذنه ليست واضحة.

◆ رسم أهم لوحاته في مصحَّة عقلية

قضى (فان جوخ وقتًا) في العلاج في سانت بول، وخلال قضائه الوقت هناك رسم مشاهد للحدائق الموجودة في المكان سواء نهارًا أو ليلًا، وقد تجاوزت لوحاته التي رسـمها في أثناء علاجه الـ١٠٠ لوحة، وبعضها يُعَدُّ من أهمِّ لوحاته مثل (ليلة النجوم) و(زهر السوسـن) التي بِيعَتْ بـ٥٠ مليون دولار.

◆ لم يتزوج، ولم يُنجِبْ

كان (فـان جوخ) سـيئ الحظ في الحبِّ؛ فقد وقـع في الحب مرات عديـدة رغم معارضة أهله لبعض اختياراته الغريبة، ورغم كثرة تجاربه العاطفية؛ فإنه لم يتمكن من تحويل أيٍّ من هذه العلاقات إلى زواج.

◆ انتحاره ليس مؤكدًا

تشـير القصص الشـائعة عن (فان جوخ) إلى أن الرسام الكبير أطلق النـار على بطنه مُنتحرًا في أثناء رسـمه لإحدى لوحاته، ولكن في سـيرة

ذاتيــة صدرت عام ٢٠١١م عن فان جوخ أكَّــد المؤلفون قصةً تقول بأن صبيًّــا هو الذي أطلق عليه النار وقتله عــن طريق الخطأ. ويظل (فان) لغزًا في حياته وبعد وفاته، ويبقى اسم (فينسنت فان جوخ) علامة فارقة من علامات فن الرسم.

◆ من أقوال فان جوخ:

«كثيرًا ما أظن أن الليل أكثر حياةً وذخرًا بالألوان من النهار».

«إذا ســمعت صوتًا داخلك يقول: إنك لا تستطيع الرسم؛ فهذا يعني ارسم، سيصمت ذلك الصوت في داخلك للأبد».

«للأشــياء القبيحة خصوصية فنية قد لا نجدها في الأشــياء الجميلة، وعين الفنان لا تُخطئ ذلك».

«سأكون فقيرًا، وسأكون فنانًا؛ لأنني أريد أن أكون إنسانًا».

«أحلم بالرسم، وبعد ذلك أرسم حلمي».

«لطالما دفعت بي حاجتي إلى الحنان؛ لالتماســه عند أشــخاص كانوا يحاولون تدميري».

«الحب أبدي، وقد يتغير مظهره، لكن جوهره لا يتغير».

هكــذا هو التاريــخ؛ لكل بداية نهاية، وخير العمل ما حسُــن آخره، وخير الكلام ما قَلَّ ودَلَّ، وبعد هذا الجهد المتواضع أرجو أن أكون مُوفَّقًا في سَرْدي سردًا لا ملَلَ فيه ولا تَقصير.

وفي النهاية لا أملك إلا أن أقول: ما أنا إلا بَشر؛ قد أُخطئ وقد أُصيب، فإن كنــت أخطأت فأرجو مُســامحتي، وإن كنتُ أصبــتُ؛ فهذا كل ما أرجوه من الله (عز وجل).

وإلى رحلة أخرى -إن شــاء الله- في الجزء الثاني من الكتاب (ساعات من التاريخ)، وكتاب (الحرب والخيانة).

محمد غازي

الفهرس

المجاعات والأوبئة.....٢٢
المجاعة الكبرى.....٣٢
شريعة الغاب.....٤٩
ماذا يريد الانسان من هذه الدنيا.....٦٠
مجاعة الصين.....٦١
مجاعة البطاطس.....٦٦
مجاعة الثلاثين.....٧١
الموت الأسود.....٧٦
الإنفلونزا الوبائية.....٧٤
راسبوتين.....١٠٠
الجريمة والعقاب.....١١٠
هارون الرشيد.....١١٩
فان جوخ.....١٣٦